إصدارات أنصار الإمام المهدي عليه السلام/ العدد (١٥١)

بين الجمهوريات الحلم

ومشروع يماني آل محمد عليه السلام الإلهي

بقلم

الأستاذ زكي الأنصاري

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م

لمعرفة المزيد حول دعوة السيد أحمد الحسن عليه السلام

يمكنكم الدخول إلى الموقع التالي :

www.almahdyoon.org

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى العهد المعهود والميثاق المعقود ... إلى جوهرة الرب المعبود ... إلى الشاهد والمشهود ... إلى من سجدت له الخلائق في ذر الوجود.

إلى طاء طه وسين ياسين ... إلى الحق اليقين في ذر رب العالمين ... إلى خاتم يوم الدين وفاتح دولة العدل المبين.

إلى محال أداء الأمانة وتعاهد الميثاق والشاهد بالموافاة للمؤمنين ... إلى عزائم القرآن وبيان كلمات الرحمن ... إلى الملك الأقرب لنور الإيمان ... إلى السابق أقرانه سبق الإنسان ... إلى صورة محمد وعلي في الأكوان ... إلى الرسول الممتحن بالصمت والكتمان ... إلى من عجز عن معرفته الإنس والجان وسلموا لطاعته تسليم الإذعان.

إلى من يُحجُّ له ويُقصد ... إلى العلم الأمجد ... إلى المنصور المؤيد ... والروح المسدد.

إلى من هو من أمر الله، وعلم الناس عنده تدارك ... إلى سورة تبارك ... إلى عقبة الله التي من لم يقتحمها هالك.

إلى امتحان الله في الأولين والآخرين ... إلى من وصفه رسول الله ﷺ بأول المقربين في الكتاب المزبور في السماء المتلو على لسان رسوله الأمين وأملاه على باب حطة للعالمين ... إلى أول المهديين المسمى أحمد المكنى عبد الله، الموصوف بالمهدي ... إلى ذخيرة الأنبياء والمرسلين.

إلى حجة الفؤاد ودليله ... إلى سراج البصر ونوره ... إلى عاصم السمع وحكيمه.

إلى المبعوث رحمة للمؤمنين ... إلى المبعوث نقمة على الكافرين والمنافقين ... إلى برعم الرسول الطبين ... إلى من شهد له يعسوب الدين ... إلى حبيب غيب رب العالمين.. سيدي ومولاي أول المؤمنين، وأبي المهديين، أحمد، الموصوف في زبر الأولين، وبشارة عيسى عليه السلام في الآخرين.

اقبل مني هذه البضاعة المزجاة وتصدق عليّ إن الله يجزي المتصدقين.

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال:

تبين هذه الدراسة حركة الإرادة البشرية التي آلت على نفسها أن تقابل الإرادة الإلهية، حيث أن الثابت؛ إن كل نظام هو دال على الصانع الحكيم، والكمال المطلق، والغني بذاته؛ لأن إرادة الصنع والمصنوع وما يمتلكه المصنوع من قدرات وإمكانات هي من عطاءات الغني بذاته، ولكي تستبين الحكمة من وراء هذا العطاء كان العطاء نازلاً بنظام لا يتبدل ولا يتخلف ولا يعتريه التغيير، وسمة النظام كي يكون نظاماً لابد أن يكون ثابتاً.

ومن الثوابت التي بيّنها الحق سبحانه في كتابه الذي قال فيه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1] هو ثابت الملكية، فمن الثابت المعلوم أن المالك للعطاء هو صاحبه الأصل، فالمالك لهذا الكون هو الغني المطلق وهو واضع النظام الأصل وهو النظام التكويني الثابت، وهذا النظام ينبني على أربعة أركان، هي:

الركن الأول: وهو الركن الأصل الذي تجلت منه الأركان الثلاثة الآتية، وهو: مالك النظام والملك عليه، وهو الغني المطلق، وهو الغيب المطلق الذي حجب ذاته تعبيراً عن خلق الكريم بالعطاء، حيث أعلى درجات الكرم أن يعطي الكريم من دون أن يكون ظاهراً بذاته كي لا يشعر السائل بذل المسألة فكان حجابه الأول؛ الوحي (الكلمة)، والثاني؛ الحجاب (الوجود البرزخي الذي يخفق بين الفناء وإمكان الوجود)، والثالث؛ الرسول المبعوث هادياً للخلق معرِّفا بالحق مبشراً من يصدقه، ومنذراً من يكذبه.

الركن الثاني: النص الذي هو تبيان لكل شيء، حيث يحتوي هذا النص على كل القوانين الحاكمة، وفيه كل الأوامر الإلهية المنظمة لحركة الكون، ومن تلك القوانين قانون الملكية القائل بوجود: دستور تشريعي، وحاكم قائم بتنفيذ الدستور، ورعية يسوسها الحاكم القائم على وفق نظام الحاكمية.

١- النحل: ٨٩.

الركن الثالث: الخليفة الذي هو صورة المستخلِف الذي استخلفه، ولذلك عندما أعلن الحق سبحانه للملائكة بقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[1] اعترضت الملائكة على هذا التنصيب؛ لأنها ظنت أنها أكمل المخلوقات القادرة على أن تكون صورة أسماء الله الحسنى !!

ولكن ما حصل بعد ذلك هو أنها اكتشفت أن معرفتها معرفة محدودة، ومحدودية معرفتها لا تؤهلها إلى ما ظنت أنها قادرة على حمله، فهي وإن كانت تمثل جهة من جهات أسماء الله الحسنى ولكنها غير قادرة على أن تكون الجهة المظهرة لكل أسماء الله الحسنى، بحيث تكون هي ظهور الغيب المطلق في عالم الإمكان.

وعندما استبانت لها هذه الحقيقة سألت الله سبحانه المغفرة، وأدت الطاعة لمن جعله الله سبحانه خليفة له عارفاً به ومعرفاً له، ولذلك يمكننا أن نفهم دلالة الاسمين اللذين أطلقا على هذا المخلوق؛ فالاسم الأول: الإنسان، كونه المخلوق الذي لا يأنس إلا بخالقه فهو ملتصق به متعشق له، وكونه مخلوق جعله شائقاً إلى ربه شوقاً لا ينازعه فيه منازع (وهذا الوصف هو الذي ينطبق على الإنسان المخلوق في أحسن تقويم).

والاسم الثاني: البشر، كون هذا المخلوق هو البشير العارف بربه المبشر به (وهذا الوصف هو الذي ينطبق على من كان كما أراد له خالقه أن يكون).

الركن الرابع: الرعية المأمورون بالطاعة لهذا الخليفة المنصب، الذين كان عليهم أن يعتبروا بموقف الملائكة حينما أعلمهم الله سبحانه بأمر الجعل، وكان لهذه الطاعة التي لو التزموها وأدوها على وفق ما أراد المستخلِف الحق سبحانه لفازوا كونهم اجتازوا العقبة التي عثر بها الملائكة، ولأضحوا صورة لهذا الخليفة، فكانوا عارفين معرِّفين بالخليفة ومن جعله.

١- البقرة: ٣٠.

وهذه الأركان الأربعة هي أركان النظام التكويني الثابت: المالك الملك/ النص (الدستور المنظم لعمل الخليفة والرعية)/ الخليفة القائم بأمر النص/ الرعية المأمورة بطاعة الخليفة والالتزام بالنص وما يصدر من بيان له من الخليفة المنصب.

ومن هنا كان قول أمير المؤمنين عليه السلام في بيان هذه الحقيقة التنظيمية وليس تشريعاً لشيء، وإنما هو في مقام التبيين، ولكن للأسف صرنا نرى هذا البيان العظيم استحال خنجراً لطعن التشريع الإلهي، حيث رد عليه السلام على الخوارج لما سمع قولهم (لا حكم إلا لله)، قال عليه السلام: (**كلمة حق يراد بها باطل. نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله؛ وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح به بر ويستراح من فاجر**) [1].

ليفضح أولئك الذين أرادوا تخريب النظام الكوني الإلهي أن وجود أمير قائد ووجود راع للرعية أمر قهري، أما كون هذا الراعي صالحاً أو طالحاً فهذا تكفل ببيانه الشرع الإلهي، حيث نصب الله سبحانه الصالح وأمر بطاعته، وفضح الطالح ونهى عن طاعته، فقال عز من قائل: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[2].

* * *

١- نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج١ ص٩١.
٢- البقرة: ٢٥٦.

هل فشل الفلاسفة في صنع المدينة الفاضلة ؟؟؟

على الرغم من كل المحاولات التي بذلتها البشرية بجعل (الأنا) البشري معادلاً موضوعياً لل (هو) وحقيقة مؤثرة في الواقع الخارجي إلا أنها كانت دائماً ما تصطدم ببعث سماوي ينقض هذا الوهم الذي أغلق أبواب المعرفة الحقيقية بوجه البشرية، فلا أحد ينكر أن كل الذين سلكوا سبيل الفلسفة كان غاية مشروعهم وشروعهم في سلوك هذا السبيل هو بناء (الجمهورية الحلم)، بل أن الفلسفة كمشروع فكري بشري ما كان ليرى النور لولا أنه في كل محاولة له يؤكد على تلك الغاية، بل ويشدد على جعلها الباعث للعمل والجهد.

وما غاب عن ذهن الفلاسفة عموماً، وحتى المسلمين منهم هو أن بناء (الجمهورية الحلم) يقتضي أن يكون بانيها مهيمناً على بنائه وليس جزءاً منه أو مفردة من مفرداته، ولعلي لا أجانب الصواب في أن كل فيلسوف حاول بناء مدينة فاضلة هو في واقعه ولسان حاله ينطق بادعاء إلوهية الخلق وربوبية التدبير والإدارة، فهو وإن كان يفكر ويسطر على مستوى الكلمات حسب، ولكنه ينشط في أن يكون معلماً يروج لما يفكر به ويسطره.

وهو من طرف خفي يشير إلى تلامذته وإلى من يقرأ له ويستهويه طرحه؛ أن عليكم أن تتعبدوني، بدليل أن أولئك التلامذة يعملون جاهدين على فهم مفردات فلسفة أستاذهم والعمل على تطبيقها في الواقع، وعندما تستبين الثغرات في فكرة المعلم الفلسفية ينحا التلاميذ باللائمة على أنفسهم كونهم هم من فشل في التطبيق وليس لعجز بالولادة الفلسفية لمعلمهم!!

يقول بعض الباحثين متحدثا عن أفلاطون وتاريخه: (وكان أفلاطون يبغي من تعليمه في الأكاديمية هدفاً سياسياً، هو تكوين فئة من الفلاسفة المستعدين لنشر نظريات اجتماعية وسياسية في أنحاء بلاد اليونان.

يذكر بلوتارخ أن أفلاطون لم يترك لنا مجرد مذهب نظري في السياسة، بل تعدى ذلك حين أخرج سياسيين ومشرعين أمثال ديون في صقلية، وبتون وهيراقليد في تراقيا، وأودوكس وأرسطوا اللذين شرعا قوانين لكنيدوس واسطاغيرا) [1].

فاستحال بذلك معلمهم خالقاً (مستغنياً) للفكرة ورباً (غنياً) للعاملين بها، ولذلك يُلحظ على التلامذة العمل الجد في تلميع صورة المعلم وتوصيفه بصفات (السوبر مان) المنقذ الذي بعث لهم لإنقاذ الواقع المتردي، حيث يصل الحال بأحد الباحثين إلى القول: (فإن فلسفة سقراط هي أول فلسفة يونانية اهتمت بالقضايا الأخلاقية، وجعلت ذلك في صميم أفكارها الأساسية، لذا قيل: إن سقراط جاء بالفلسفة من السماء إلى الأرض؛ كناية عن البعد العملي الذي طعّمت به الفلسفة النظرية لمعالجة مشاكل الحياة بشتى جوانبها) [2]. ولكي يخفف الوطأة على القارئ لم يصرح بأن سقراط نبياً مزعوماً جنح إلى رمي هذا القول على بساط الكناية؛ ليتخلص من تبعات هذا الادعاء الخطير الذي لا دليل عليه !!

والغريب أن الناس لا تعلم لهذا المعلم جهة أرسلته، وحتى هو لا يستطيع أن يدعي أنه رسول جهة ما، فضلاً على أن المعلم ارتكب خطأً فادحاً من دون أن يلحظ هو أو من تحمس لتبني فلسفته للحياة، حيث أنه لعب دورين متناقضين لا يجتمعان ولا يرتفعان – كما يقول المناطقة في النقيضين –، فهو عند كتابة النص تقمص دور الإله أي؛ واهب الكمال، وكونه واهب الكمال هذا يعني أنه نور لا ظلمة فيه، فوجود ولو شائبة ظلمة فيه تعني أنه ادعى أمراً مستحيلاً !!

ذاك أن وجود شائبة الظلمة فيه تجعله محتاجاً وعليه التوجه إلى جهة الكمال، وبذلك تكون جهة الكمال غيره وليس هو، ومن ثم قيامه بكتابة النص هو تمحل على النص واعتداء على قدسيته، ويحسن الالتفات إلى أن وصف النص بالقدسية ليس من جهة العاطفة أو العصبية، بل هذا الوصف هو استحقاق للنص.

١- جمهورية أفلاطون - د. أميرة حلمي مطر - مهرجان القراءة للجميع: ٩٤، مكتبة الأسرة: ص١٠.
٢- مناهج المعرفة - السيد كمال الحيدري ط الأولى ١٤٢٤هـ، الناشر، دار فرقد: ص٣٧ – ٣٨.

فالنص حامل للمعرفة، والمعرفة هي المطهرة من الجهل، فبوصفه حاملاً للمعرفة أي هو حامل للطهر والكمال ولا يكون الكمال إلا من ساحة القدس ولذلك يوصف بالقدسية، وينبغي أن يكون هذا النص القدسي صادراً من النور الذي لا ظلمة فيه حتى يكون قادراً على التطهير من ظلمة الجهل، أما وجود الظلمة في صفحة وجوده ولو بقدر الشائبة يدلل على النقص، والناقص لا يصدر منه كمالاً مطلقاً، بل يمكن أن يصدر منه كمالاً بقدر ما انعكس على صفحة وجوده من الكمال المطلق.

واستناداً إلى هذا التحليل ينكشف لنا جملة من الأمور، هي على سبيل المثال لا الحصر:

الفلسفة بوصفها مشروعاً فكرياً بشرياً ادعى غاية يستحيل عليه تحقيقها، ولو كان بالإمكان تحقيقها لكان بعث الرسل الإلهيين بالشرائع عبثاً، ولا حكمة فيه، وواقع الحياة ينقض هذا الإمكان جملةً وتفصيلاً، فعندما يفقد الواقع رعاية السماء بواسطة الشريعة والقائم بها المنصب من الله سبحانه يستحيل الواقع إلى غابة مخيفة تعمل على وفق المنطق الغابوي وهو البقاء للأقوى، ولذا فهي تستحيل ساحة صراع من أجل البقاء، فيشيع فيها العنف والقتل لأجل القتل وتأكيد القوة والسلطة.

الذين ابتدعوا هذا المشروع تقمصوا وضعاً مستحيلاً، فهم عند الشروع بكتابة النص يتوهمون أنفسهم آلهة واهبة للكمال، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يسطروا حرفاً واحداً، وبعدما يتموا كتابة النص يجدون لزاماً عليهم تقمص دور المعلم فيكون النص مهيمناً عليهم، وهم قبل الكتابة وفي أثنائها آلهة، وبعدها مألوهون، ولكي يتجاوزوا هذا المأزق الناسف لعملهم تراهم يجتهدون في اصطناع مريدين لهم ومروجين لفلسفتهم كي يقوم أولئك التلامذة بدور الرسل لهذا الفيلسوف أو ذاك، ويكون هذا الفيلسوف رباً لهم بوصفه مربيهم وعلى يديه يتخلقون !!

وهذا الوهم الخطير إذا ما نزل إلى الواقع فهو ينزل منازعاً وليس مصلحاً !! لماذا ؟؟ لأنه ببساطة يفتقر إلى القراءة المحيطة بالواقع وبمن يقومون بالعمل فيه، وكل الذي يملكه هو تصور لواقع غير هذا المعاش. فيكون عمله منصباً على تغيير الواقع جملةً وتفصيلاً، إما من خلال الاصطدام معه اصطداماً عنفياً مستنداً إلى مبدأ الغلبة، أو من خلال المراوغة والمخادعة والتمويه

استناداً إلى تحقيق المصالح، وليس الصلاح والإصلاح، وإن كان هذا شعاراً ترفعه كل فلسفة تعمل على صناعة اليوتوبيا، وربما يقول أحدهم؛ وهذا حال الأنبياء والرسل والأوصياء الإلهيين عليهم السلام، فهم أيضاً يعملون على البحث عن مروجين لفكرهم وللنص الذي يدعون أنه نازل من السماء، بل لعل الفلاسفة لم يدعوا أن النص الذي يريدون تطبيقه هو نازل من السماء، وهم بهذه الجزئية أكثر مصداقية من الأنبياء عليهم السلام ؟؟!!

يكون الجواب على أصحاب هذا الوهم من جهات:

أولها: إن الأنبياء والرسل عليهم السلام يعلنون أنهم خدم للنص السماوي، وأول محكوم به، وأول من يعمل على تطبيقه في ساحته قبل ساحة المبعوث لهم، ولذلك فأولئك الطاهرين عليهم السلام قبل إعلانهم لدعواتهم يكونون مثار إعجاب أممهم بما يمتلكون من بنية أخلاقية عالية تحكمهم.

ولا شك في أن هذا الحال هو معاكس لما عليه الفلاسفة، فهم سادة النص بوصفهم صانعوه، ولذلك هم يشعرون بالفوقية في التعامل معه، وعندما يظهر فشل مشروعهم في تكييف الواقع فهم يتهمون الواقع في التقصير عن بلوغ مرادهم مما كتبوا، بينما الأنبياء عليهم السلام عندما يتهمون الواقع فاتهامهم له كونه تخلف عن وضعه الأصل الذي أوجده عليه خالقه، ولذا فالأنبياء عليهم السلام دائماً يحاولون إعادة البشرية إلى فطرتها، بينما الفلاسفة يجتهدون بالعمل على تقويض الفطرة الإنسانية وبناء فطرة من صنعهم هم بتوهمهم أنهم (آلهة مستغنون).

ثانياً: إن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام من اللحظات الأولى التي يصدعون فيها بالدعوة يأمرون الناس بالعبودية إلى الله سبحانه (الغيب المطلق واهب الكمال، الغني بذاته المستغني عن خلقه)، وبالطاعة لهم بأمر من أرسلهم بوصفهم مربوبين، وهم بهذا يؤدون تكليفاً كلفهم به من أرسلهم.

أما الفلاسفة فهم مرسلون من أنفسهم، فهم الآمرون المأمورون بذات الوقت، وهذا تناقض واضح، فمن أين أن أكون أنا الآمر الأصل، وأنا المأمور في الوقت عينه، ولذلك يتخلص أولئك الفلاسفة من هذا التناقض بالارتفاع فوق النص والتمرد عليه بوصفهم غير محكومين بما

كتبوا، بل هم كتبوا ما كتبوا للذين دونهم وهم فوق ما كتبوا، ومن ثم فهم يدَّعون أنهم آلهة مستغنية بذاتها، وهذا ادعاء خطير لما يستبطنه.

ثالثاً: إن الأنبياء عليهم السلام منذ اللحظات الأولى يصرحون بأنهم مبعوثون لإصلاح الواقع وكشف ما فيه من صلاح مطموس بفعل انحراف الناس، وفضح الانحراف الحاصل فيه كي يعود الناس عن انحرافهم إلى السبيل القويم الذي هو سبيل الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

أما الفلاسفة فهم يعملون في البدء على انتقاد الواقع كله، ومن ثم يشرعون في بناء واقع تصوري يعملون على جعله بديلاً للواقع الفعلي، ولذلك هم مداهنون في البدء ثم صداميون عنفيون حتى في جمهورياتهم ومدنهم التي وصفوها بالفاضلة، ومدنهم تلك لم تزد عن كونها تعبيراً صارخاً عن النقص الذي يعانيه الفكر البشري؛ لأن من يقرأ تلك الجمهوريات يجد أن كل واحدة منها تستبعد الشريحة التي لا تروق لفكر الفيلسوف المعين، ولذلك فهي جمهوريات (قصرية) باستبعادها لشرائح من البشر، و(قسرية) كونها تفرض نفسها على الواقع الخارجي فرضاً قسرياً، في البدء بالخداع والتمويه، وبعدما تتمكن تفصح عن نواياها العنفية السلطوية.

رابعاً: يبدأ الفلاسفة فيما يطرحون بمداهنة الواقع وانتقاده انتقاداً لا يكشف عن غايته، بينما الأنبياء والمرسلون عليهم السلام فمن لحظاتهم الأولى يضعون المبادئ الحق المراد تحقيقها من دون مداهنة للباطل، مع لحاظ أن الطرح غايته الإصلاح لا التسلط.

في المشروع الفلسفي تخريب للمعادلة الإلهية التي أثبتها في صفحة وجود خلقه وسماها الفطرة، هذه المعادلة تقوم على أن النص هو جهة الكمال والمعلم له هو جهة سد النقص، ولذا على الخلق أن يعرفوا الله سبحانه بالنص ويتعرفوا على المعلم بالله سبحانه، ومهمة المعلم هي أنه يعلم الناس النص على وفق ما علمه الله سبحانه؛ كي يتمكنوا من معرفته سبحانه، فيكون بذلك النص دالاً على معلمه معرفاً بصاحبه.

ويكون المعلم مبيناً للنص كاشفاً عن أسراره ومنابع الكمال فيه؛ لأن غاية المعرفة هي أن يكون المرء مثال النص وصورة للناطق به، أي يكون كالمعلم المبعوث له.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[١].

فتكون المعادلة المعرفية الإلهية لها ثلاثة حدود؛ الحد الأعلى: النص، والحد الأوسط: المعلم المنصب أو خليفة صاحب النص، الحد الأدنى: الناس المتلقون.

وغاية هذه المعادلة هو الوصول إلى الغيب الغني بذاته صاحب الكمال المطلق، الذي به يسد نقص الذات البشرية، وبه يتحصل الكمال المنشود.

بينما المعادلة التخريبية التي يقترحها المشروع الفلسفي البشري فهي: فيلسوف صانع للنص (هو الحد الأعلى)، نص مصنوع (هو الحد الوسطي)، وتلامذة مروجون (هو الحد الأدنى). والغاية هي تغيير الواقع البشري على وفق تصورات صانع النص، وكما نلحظ في الحد الأدنى تغييباً واضحاً للناس عموماً وقسرها على جمع من التلاميذ والمريدين.

أما عامة الناس فهم خارج نظر الفيلسوف؛ لأن قوله لا يعنيهم، وبالإجمال فمشاريع (الجمهورية الحلم) التي شرع في بنائها الفلاسفة تستهدف تعطيل المشروع الإلهي في الإصلاح وتأخيره عن ممارسة تكليفه في الواقع كي تتحقق الإرادة الإلهية في أن يكون الخلق كلهم عارفين بربهم معرفة تؤهلهم إلى بلوغ ما أراد لهم في ساحة القدس.

إن من يتأمل المشروع الفلسفي البشري بكل أشكاله وتشكلاته يجده مشروعاً قائماً على محاربة الدين الإلهي، بل وفي حالات انحراف البشرية عن سبيل الله سبحانه ينصب نفسه معادلاً موضوعياً للدين، ويبدأ باستحداث النص الفلسفي ليشكل تعويضاً عن النص الإلهي !!

ويعمل في هذا النص على تخريب الفطرة البشرية كي يعمل كل فرد على إنكار النص الإلهي كونه نصاً غريباً عما يعرف ويألف، ومن هنا تبدأ معاناة المرسلين عليهم السلام، ومن ثم يخرب مقام المعلم بجعله مقاماً مشاعاً لمن تتوفر فيه جملة من الشرائط هي من وضع المشروع الفلسفي، وهذه الشرائط يمكن تحصيلها لجملة من الذين يشرعون في سلوك سبيل الفلسفة. فيحتل أولئك الذين أتموا شرائط النجاح الموضوعة مقام المعلم، ويعمل المشروع الفلسفي على تأسيس بنية

١- الأحزاب: ٢١.

أخلاقية مغايرة للبنية الأخلاقية الإلهية قائمة على عبادة (الأنا)، فالمعلم بالمشروع الفلسفي لا يرى غير نفسه وإن تصنع التواضع !!

وأظهر مثل على ذلك موقف الفيلسوف سقراط عندما احتسى السم انتصاراً لما سماه مبادئ هو وضعها، وقبل من أجلها أن يموت دون أن يضحي بتلك المبادئ التي وضعها؛ لأنه يعلم تماماً أنه سيموت في يوم ما، أما ما وضعه فيزداد ثباتاً بقتله لنفسه كون فعله بحسب ما يفهمه المخدوعون المنحرفون عن سبيل الله سبحانه: (شهادة من أجل المبادئ) !! متغافلين أو غافلين عن أن تلك المبادئ هي من وضع سقراط.

ولذلك فهو باحتسائه السم يؤكد إلوهيته التي من أجلها شرع في هذا السبيل، ولقد تحقق له ما تأمله من فعله في الدنيا حيث وجدنا رجال دين مسلمين يصفون سقراط بـ (شهيد الفلاسفة)، نعم هو شهيد الفلاسفة الذي شهد بنفسه على عبادة (الأنا) التي هي رسالة المشروع الفلسفي البشري.

وإلى اليوم يلحظ على الكثير من الناس تقديس سقراط بناءً على موقفه، حتى أن ما كتب عنه أضعاف ما كتب عن الرسل والأنبياء عليهم السلام، بل أن الكثير من أولئك الطاهرين عليهم السلام جاؤوا إلى هذا العالم ومضوا من دون أن تحفظ لهم البشرية منقبة واحدة من مناقبهم العظيمة، بينما أولئك الفلاسفة تجد البشرية تصطنع لهم مواقف خطيرة لا وجود لها إلا في مخيلة أصحابها استناداً إلى تصورات تلامذتهم والمروجين لفلسفتهم.

وآخر ما يستهدفه المشروع الفلسفي بالتخريب هو الوعاء القابل أي الواقع البشري، حيث يعمل هذا المشروع على توجيه البشرية باتجاه (الأنا)، وكل مرحلة يقطعها باتجاه هذا الهدف هو يبتعد عن الـ (هو)، ويعد اكتمال التوجه إلى الأنا هو مرحلة الانقطاع الكامل عن الـ (هو)، ولو حصل ذلك تسيخ الأرض بأهلها وتضطرب كما يضطرب البحر بأهله، ولا نجاة من الهلاك.

ولذلك عندما تصل البشرية إلى تلك النقطة الحرجة في مفارقة المشروع الإلهي يبعث الله سبحانه لهم من يصلح هذا الفساد الكبير الذي أحدثه المشروع الفلسفي البشري، ويعمل على

إعادة الحياة إلى المشروع الإلهي، وكلما تعود الحياة لهذا المشروع العظيم في نفوس الناس ينتبهون إلى عظيم فساد المشروع الفلسفي.

لذا يعمل سدنة ذاك المشروع على نصب العداء مباشرة لصاحب المشروع الإلهي من خلال استغلال ما جهدوا في بنائه طوال الفترة الماضية من هيكل القدسية الزائفة التي شيدوها في أنفس الناس، فيقومون بتحريض الناس على ذلك الداعي الإلهي بحجة أنه جاء لتخريب ما اعتاد عليه الناس وتواطؤوا على معرفته كونه الصالح لحياتهم وكونه امتداداً لمواريث الآباء والأجداد !

وربما ينجح أصحاب المشروع الفلسفي في تأخير عمل المصلح ولكنهم أبداً لن يستطيعوا المحافظة على مشروعهم قبال مشروعه، ذاك أن الشمس في ساعات النهار الأولى تبدو في شبهة الظلمة لتستبين في نهاية الأمر شمساً ساطعة تفضح كل أولئك الذين كانوا يتخفون تحت ستار الظلام.

هذا هو الذي يحمله المشروع الإلهي بعد كل فترة يمر بها واقع الحياة البشرية، وبدايته المشتبهة هي من باب تمييز الناس ووضعهم في مراتبهم بمقدار محافظتهم على الفطرة التي فطرهم الله عليها، ففي بداية المشروع الإلهي يكون اعتماده على الغيب كبيراً والامتحان به كبير، ومع مضي الوقت تبدأ أشعة الشمس بالسطوع لتفصح عن نفسها، فيكون الامتحان بالغيب فيها عظيماً، ويزداد خفاء كلما ازدادت الشمس سطوعاً، فيكون أولئك الذين آمنوا في البدء امتحانهم أيسر؛ لأنهم عرفوا الغيب بالغيب، وعرفوا رسول الغيب بالغيب، أما بعد سطوع الشمس وظهور الآيات فيصعب على الناس تلك المعرفة الغيبية التي كانت متوفرة لأولئك السابقين، التي هي مطلوبة في الإيمان.

فالغيب يطالب الناس أن يعرفوه بالغيب، وما ظهور الآيات إلا لتكون الحجة له لا عليه؛ لأن له الحجة البالغة سبحانه، قال تعالى: ﴿**قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[1].

١- الأنعام: ١٤٩.

فقد ورد: (عن الفضل بن السكن، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: **اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأولي الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان. ومعنى قوله عليه السلام: اعرفوا الله بالله؛ يعني أن الله خلق الأشخاص والأنوار والجواهر والأعيان، فالأعيان: الأبدان، والجواهر: الأرواح، وهو عز وجل لا يشبه جسماً ولا روحاً وليس لأحد في خلق الروح الحساس الدراك أمر ولا سبب، هو المتفرد بخلق الأرواح والأجسام، فإذا نفى عنه الشبهين: شبه الأبدان وشبه الأرواح فقد عرف الله بالله، وإذا شبهه بالروح أو البدن أو النور فلم يعرف الله بالله**) [1].

* * *

١- الكافي - الشيخ الكليني: ج١ ص٨٥.

النص الإلهي مدار حركة دولة العدل الإلهي

هنا سنشرع في البحث في المفردة الأولى من مفردات مشروع الدولة الإلهية وداعيها يماني آل محمد عليه السلام، وهذه المفردة هي (النص الإلهي)، وعلاقة الخلق به وتكييف هذه العلاقة، حيث أن الحركة باتجاه النص تستند إلى استحضار شعور الخادمية للنص، وهذا الشعور هو أول الخطى بهذا الاتجاه، وكمال هذا السبيل هو بلوغ السائر فيه رتبة خادم حقيقي للنص، وهذه الدرجة هي أعلى درجات تكييف الذات باتجاه النص بحيث تنسى الذات البشرية قدرتها على النطق؛ لأنه من حق النص وليس من حقها، وتقف الذات البشرية على بابه وقفة العبد الذليل طلباً للمعرفة ورغبة حقيقية في التحصيل على مقام الرضوان، وهذا المقام هو أكبر مقامات المعرفة.

في هذا المقام يكون العبد ليس أكثر من وعاء للنور، وامتلاؤه بالنور أخرسه، وكشف له حقيقة العجز عن المعرفة، حيث لا يكون القابل (الوعاء) فاعلاً (نوراً)، بل غاية ما يكونه هو خادم للنور ومترجم لأسراره الكمالية. فيستبين له في ذلك المقام أحقية النص بالنطق وعجزه عن الكلام بحضرته، بل كل ما يفعله أن يكون خادماً مطيعاً يؤمر فيفعل، ويُنهى فيمتثل. قال تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۞ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1].

إن رحلة الخادمية باتجاه النص (مصدر الكمال) تتطلب من العبد في كل مرحلة يقطعها يعلم معها غاية وجوده وعلاقته ببدنه وبهذا العالم، ومعرفة هذه الغاية ينبغي أن تترجم عملاً، وهذا العمل يكون مساوقاً للمعرفة، فكلما ازدادت المعرفة بمسار الخادمية ازداد العمل باتجاه الهدف، وازدادت المعرفة بحقيقة علاقة النفس بالجسد وبهذا العالم المادي، حيث يتحصل العبد من تلك المسيرة على أن هذا العالم ليس أكثر من حيز لأداء الامتحان اتسع هذا الحيز أو لم يتسع، كثرت مفرداته أو قلت، طال زمن الامتحان أو قصر.

١- الأنبياء: ٢٥ – ٢٧.

واكتمال هذا الأمر يشد انتباه العبد باتجاه النص ومعلم النص حتى أنه من شدة تعلقه بالنص ومعلمه لا يرى غيرهما في هذا العالم، بل يرى كل شيء بهما ومن خلالهما، وهنا التعبير بالثنائية عن النص والمعلم اعتباراً، وإلا فحقيقتهما واحدة، ذاك أن المعلم ما جُعل معلماً لولا أنه بلغ مقام خادمية النص فصار صورة تظهر حقيقته ظهوراً كاملاً.

من المعلوم أن النص في هذا العالم نزل مرمَّزاً ومغلفاً بهذه الألفاظ التي ظاهرها يشاكل ما عند الناس ولكن حقيقتها تختلف تماماً باختلاف منزلها، فكما أن الحق سبحانه ﴿**فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[١] فكذلك كلامه ليس كمثله كلام، ومن ثم ما يجري على كلام البشر لا يجري على كلام الله سبحانه، بل كلام الله هو الحكم والفيصل وهو مقياس الكمال والتكامل، وهو الفيصل الحق.

قال الإمام علي عليه السلام: (..... **إياك أن تفسر القرآن برأيك حتى تفقهه عن العلماء، فإنه رب تنزيل يشبه كلام البشر وهو كلام الله، وتأويله لا يشبه كلام – البشر، كما ليس شيء من خلقه يشبهه، كذلك لا يشبه فعله تبارك وتعالى شيئاً من أفعال البشر، ولا يشبه شيء من كلامه كلام البشر، فكلام الله تبارك وتعالى صفته وكلام البشر أفعالهم، فلا تشبه كلام الله بكلام البشر فتهلك وتضل**) [٢].

ولما كان هذا الكلام مرمزاً بمعنى أنه نزل كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (**إن القرآن نزل جميعه على معنى إياك أعني واسمعي يا جاره**) [٣]. فهو وإن كان الخطاب فيه موجهاً إلى المعلم ولكن حقيقة الخطاب موجهة إلى من يسمع للمعلم ويطيع.

ومن هنا نفهم كيف أن أولئك الذين يدعون التدين ظلموا النص الإلهي النازل إليهم من السماء لكل أهل الأرض، وجعلوه معلماً للعصبية والجاهلية، وعطلوه من ممارسة تكليفه بالهداية بوصفه كتاباً هادياً للتي هي أقوم، وتلك التي هي أقوم هي غاية المعرفة وهي العبودية، ولذلك

١- الشورى: ١١.
٢- التوحيد - الشيخ الصدوق: ص٢٦٤، البرهان: ج١ ص٤٦.
٣- عوالي اللئالي - ابن أبي جمهور الاحسائي: ج٤ ص١١٥.

ورد عن (علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن موسى بن أكيل النميري، عن العلاء بن سيابة، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾، قال: **يهدي إلى الإمام**)[1]، ذاك أن الإمام المعلم ما كان لينال هذا العهد إلا عندما استحصل على كمال العبودية، فصار المصداق الأمثل والأكمل في زمانه لمسمى (عبد الله)، وبلغ من الإخلاص ذروته، فاستحال خادماً حقيقياً للنص حيث أعطى نفسه للنص فأعطاه النص كله، فصار هو النص والنص هو لا فرق بينهما إلا أنه عبد الله وخادم نصه الحكيم.

ولاشك في أن جعل القرآن إماماً وقائداً لكل البشرية على اختلاف ألوانها وألسنتها هو الذي يجعلها تسلك سبيل المعرفة الحق، المعرفة الكاشفة عن عدمية المخلوق ونورانية الكلمة (النص)، ولولا النص ما كان هناك خلق، فبماذا يشرق العدم إذا لم يكن هناك نور به يشرق وبه يقوم، وهنا تقف البشرية حيال النص موقف العاجز، فهي إما أن تشرع في تفكيكه وإعادة إنتاجه بما يوافق ما تعرفه وتريده منه، وهنا يتحول النص إلى ساحة للتنازع والاختلاف، أو تتضرع البشرية إلى صاحب النص أن يبعث لها معلماً لكتابه كي يجمعهم على كلمة سواء تعمل على توحدهم وتراحمهم.

ومن الثابت أن المعرفة لا تكون معرفة حقيقية إذا كان من أهدافها أن يختلف العارفون بها ويتنازعون، فالمعرفة هي الجامعة للبشرية والموحدة على كلمة سواء، ومن هنا بحسب ما يذكر عن يماني آل محمد عليه السلام أنه قال ما معناه: (لقد ارتكب علماء الأمة خطأً جسيماً باستبعادهم للقرآن ونصوصه عند الاحتجاج على مخالفيهم في الدين أو العقيدة)، ومن يتدبر هذا القول الحكيم يدرك تماماً ذلك الخطأ الجسيم حقاً، إذ من الخطأ الجسيم قصر الرسالة المحمدية على العرب وصاحبها مبعوث رحمة للعالمين أي لكل العوالم وليس لأهل الأرض حسب !!

فالرسالة المحمدية مستوعبة كل أهل الأرض بوصفهم عالم من العالمين، فبأي دليل قصرت هذه الرسالة على العرب أو على من آمن بها حسب، ومن ثم نص هذه الرسالة غير قادر على الاحتجاج على كل أهل الأرض على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم، فالقول الحكيم يثبت نفسه

١- الكافي - الشيخ الكليني: ج١ ص ٢١٦.

بنفسه، بمعنى أولئك الذين يلحدون في الله سبحانه ويستكبرون عليه وعلى رسله ورسالاته ألا يلزمهم هذا القول الحكيم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۞ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۞ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۞ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۞ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] ؟؟؟

هل هناك من لديه قدرته سبحانه على إرجاع الروح إذا بلغت الحلقوم، وهم ينظرون إلى عزيزهم كيف يعالج سكرات بلوغها، فهل بقدرتهم ردها ومغالبة الموت ؟؟؟!!! فهذا القاهر بالموت هو الله الواحد الأحد الذي يتكبر عليه الجاهلون، فهل هذا الاستدلال ملزم لمن يؤمن بالقرآن حسب ؟؟؟ ولو كان كذلك للزم أن حالة الموت واقعة في من آمن بالقرآن حسب ؟؟؟ وهذا لا يقول به مخلوق من أي لسان أو لون كان.

إذن فالنص هو ملزم للحجة على كل الخلق ويمكن محاججة الجميع به من يؤمن ومن هو ليس بمؤمن بالرسول الذي أرسل به، ومن هذا الجانب سيكون حجة دالة على مصداقية المرسل به وهو محمد ﷺ، لقد أساء المسلمون لنبيهم ﷺ، كما أساءت باقي الأمم لأنبيائها ومرسليها عندما حصروا كلمات الواحد الأحد في زاوية العصبية، وانتهكت حرمة النص وعدت عليه ففككته وراحت تنتج نصوصاً أقل ما يقال عنها جاهلية محلية ظالمة للنص الإلهي الذي هو مستوعب لكل العوالم، فما بالك بعالم الدنيا وهو أهون العوالم على الله سبحانه، وربما يسأل سائل عن الكيفية التي يحتج فيها على من لا يؤمن بهذا النص كونه نصاً إلهياً ؟؟؟

الجواب: يكون الاحتجاج بالكلمة لا بمن أنزلها أو بعث بها، فالكلمة بذاتها هي محكمة وملزمة، والله سبحانه جعل كتابه كما وصف هو جلت قدرته: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2]، وكون النص تبياناً لكل شيء هذا يعني أنه يستوعب العوالم كلها ما دامت متصفة بالشيئية، فهو تبيان لها أي هو مبين للقوانين العامة الحاكمة لها.

١- الواقعة: ٨٣ – ٨٧.
٢- النحل: ٨٩.

ولا يخرج شيء من الأشياء عن القوانين العامة التي جعلها النص كاشفة عن الكيفية والآلية التي يعمل بها كل شيء، وهذه الكلية جعلت من النص محيطاً إحاطة كلية بالأشياء، فهي تتكيف على وفق ما فيه من القوانين الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، ومن أهم تلك القوانين وأعظمها التي عملت البشرية عبر مسيرتها الحياتية الطويلة على طمسها وتغييب معالمها؛ قانون معرفة خليفة الله سبحانه، فالناس لا تختلف أن النصوص التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام هي نصوص إلهية، والغريب أن الناس تغفل عن هذه الحقيقة وهي أن النص والمعلم المبعوث به يكونان في زمن واحد لا يتخلف أحدهما عن صاحبه، مما يدلل على أن هذه المغايرة بين النص والمعلم هي مغايرة اعتبارية وليست حقيقية، بل في الحقيقة هما واحد جاء من عند الواحد.

إنما هذه الإثنينية تكشف عن الجهة، فالنص جهة كمال وألوهية، والمعلم جهة سد نقص وربوبية، فيعرف النص بألوهية المطلق، ويعرف المعلم بربوبية المطلق، ومن جهة يعرف المعلم بألوهية المطلق بوصفه قبلة المتعلمين، والنص يعرف بجهة الربوبية بوصفه الشريعة المدبرة التي بها تدار الحياة.

إن وصف التبيان بالقانونية كونه لا يتبدل ولا يتغير ولا يتخلف بل هو ثابت على الرغم من تغير الأزمان والأمكنة والناس، وليس هناك قانون يمتلك الثبوتية لدى البشرية كالقوانين الإلهية، ولكي تتخلص البشرية من هذا المأزق لإدراكها أنها بوضعها للقوانين إنما تتجاوز حدودها المسموح لها العمل فيها، قامت بوصف تلك القوانين بالوضعية، بمعنى أنها يمكن أن تتبدل وتتغير وتتخلف تبعاً لتغير أحد المتغيرات الثلاثة (الإنسان / الزمان / المكان)أو اثنين منها أو ثلاثتها، ومن ثم فإطلاق مصطلح (القانون) هو إطلاق مجازي لكون الموضوع لا يمتلك الأهلية لكي يكون قانوناً، وعماد تلك الأهلية هي الثبات.

إن هذا الثبات هو ثمرة الإحاطة بالمتغيرات؛ لأن واضعه محيط بكل شيء، أما واضع القانون البشري فهو لا يرى أبعد مما توفره له عدسة نظارته، ولذلك فهو فيما يقنن لابد أن يقع بالحيف والظلم تبعاً لمقدار الظلمة في نفسه، فكلما ازدادت مساحة الظلمة جاء القانون ظالماً وجائراً، وليكن في الحسبان أن أولئك الذين يكونون متشوبين بالظلمة لا يتجرؤون على هذا الفعل؛ لأنهم يعرفون حدودهم، ولكن من يتجرأ هم أولئك الذين تحتل الظلمة في نفوسهم

مساحات واسعة، ومن ثم فالقوانين التي ينتجونها قوانين واضحة الظلم؛ لأنها نتاج الظلمة وليس فيها من النور سوى رصف الألفاظ وبنائها بناء يوهم وكأن هناك معرفة، وليست هي بمعرفة.

لذا فأول عمل لمشروع اليماني عليه السلام كان هو إعادة الاعتبار للنص الهادي من الضلال بشقيه؛ القرآن وقول العترة الطاهرة، وتحفيز الناس على التعاطي مع النص ومقاربته مقاربة السائل الطالب للمعرفة، ولا شك في أن هذا العمل يتطلب جهداً مضنياً وشاقاً نتيجة التخريب الذي مارسته المؤسسة الدينية التي تدعي مسؤولية الحفاظ على النص الإلهي بشقيه!!!

والذي يدخل تلك المؤسسة الدينية يجد دعواها تلك فارغة المحتوى خالية تماماً، حيث إنها تخلو من دراسة القرآن وأحاديث العترة الطاهرة، ومنشغلة بدراسة مفردات (أم العلوم) كما يصطلحون عليها، وهي الفلسفة ومتعلقاتها كالمنطق واللغة وعلم الكلام، ويصدق على تلك المؤسسة أن لا تسمى (دينية) – وأعني بالتحديد الحوزة العلمية الشيعية، أما السواد الأعظم من المسلمين فالمؤسسة الدينية لديهم بعيدة كل البعد عن جوهر الدين وليس بيدها منه شيء سوى القشور لذا فهي مستبعدة من هذا الحديث – بل كان ينبغي أن تسمى (مؤسسة فلسفية)؛ لشدة احتفائها بدراسة الفلسفة ومفرداتها، واجتهادها في العمل على تكييف الدين على وفق متطلبات الفلسفة، فغاب من تلك المؤسسة الاهتمام بدراسة الأخلاق الإلهية، بل يعد درس الأخلاق لديهم درساً متدنياً يترفع الكبار من ذوي الدرجات العلمية عن تدريسه أو مقاربته، ويسند إلى المبتدئين من الطلبة وهكذا القرآن، أما روايات أهل البيت عليهم السلام فصارت ساحة للمباراة في التفنن باختراع القوانين والمحددات لقبول الرواية وردها، فصارت ميدان عمل للتباري واللهو والعبث بدل من أن تكون ميدان عمل للبناء ووضع أسس دولة الحق في نفوس الناس وتهيئتهم لاستقبال إمامهم والاستعداد للعمل بين يديه بما يسرع من قيام دولة الحق والعدل والرحمة.

ولعل من النافع للقارئ الكريم أن أورد إجابة للإمام أحمد الحسن يماني آل محمد عليه السلام لسؤال طلب من خلاله السائل معرفة كون القرآن تبياناً لكل شيء، وهذا نص السؤال وجواب اليماني عليه السلام عليه:

(السؤال/ ٢٨٣: السلام عليكم سيدنا الجليل.

السؤال هو: أن الله تعالى يقول عن القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[١]، والآية تقول أن الله نزل القرآن لتوضيح كل شيء، وأنا لا أجد كل شيء في القرآن، فإذا القرآن كان موضحاً لكل شيء فأين البكتيريا من القرآن، أو أين القطار من القرآن، أو أين أجد من القرآن مكونات الخشب وهو شيء والقرآن بين كل شيء ؟

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين وسلم تسليماً.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٣].

قبل أن نبحث في القرآن وكيف يكون تبياناً لكل شيء دنيوي وديني لابد أن تلتفت إلى أن بيان القانون الكلي الذي تندرج تحته جزئيات كثيرة أو حتى قوانين جزئية هو بمثابة بيان لتلك الجزئيات أو القوانين الجزئية، وكمثال على هذا الأمر أقول:

لو قلت (كل شيء لك طاهر حتى يتبين لك أنه نجس بعينه) فهذا قانون شرعي عام تنطوي تحته قوانين كثيرة، منها: إن الماء المجهول الحال في الطريق طاهر، وإن الإناء المجهول الحال والملقى على الأرض طاهر، وإن الحصير المجهول الحال الموضوع في قارعة الطريق أو في فناء الدار طاهر، وهكذا يمكنك تفريع قوانين كثيرة عن هذا القانون الكلي.

١- النحل: ٨٩.
٢- النحل: ٨٩.
٣- الرعد: ٣١.

أيضاً في مجال العلم الجسماني المعروف لو قلت: (لكل فعل ردة فعل) فهذا قانون فيزيائي عام تتفرع عنه قوانين كثيرة جداً، فمن رد الفعل من تصادم الذرات وأجزاءها إلى قوانين الاحتكاك، إلى قوانين الطيران، إلى قوانين كثيرة جداً كلها تقع ضمن هذا القانون العام وهو (لكل فعل ردة فعل).

الآن نعود للقرآن ونقول: كيف بيّن القرآن كل شيء ؟ وأين بيّن القرآن كل شيء ؟

ويكون بحثنا في جهتين على الأقل، هما: جهة الدين وجهة الدنيا، أما جهة الدين فقد أعطى القرآن العقيدة التي بها النجاة وهي حاكمية الله ووجود خليفته سبحانه الذي يمتحن به خلقه على هذه الأرض في كل زمان، والدين منطوٍ تحت جناح خليفة الله في كل زمان، فالنجاة في إتباعه والعمل بما يأمر به ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[1]، كما بيّن القرآن قوانين العبادة الكلية، فالصلاة بيّن أنها قراءة قرآن وركوع وسجود، والصيام بيّن أنه ترك للشهوات في شهر رمضان، وهكذا بيّن القرآن قوانين كلية والباقي فيما يخص العبادات المذكورة يأخذ مما يسنه خليفة الله في أرضه.

أما فيما يخص الدنيا فالقرآن بيّن مثلاً قانوناً عاماً، وهو أن عالم الأجسام كله يعود إلى القوة الأولى التي خلق منها ولا يزال دائماً ومتقوماً بها، ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾[2]، وبالتالي فالقرآن بيّن أن المادة الجسمانية تعود إلى القوة أو الطاقة كما يسمونها، فالمادة ما هي إلا تكثف طاقة، وهذا الأمر تبين الآن بعد أكثر من ألف عام من خلال تطبيق نظرية اينشتاين النسبية الخاصة ومن خلال التجارب المختبرية وتحويل المادة إلى طاقة وكذا العكس. فهذا قانون عام يحكم هذا العالم الجسماني وتندرج تحته قوانين.

إذن فتبيان كل شيء موجود في القرآن سواء كان تبيان هذا العالم الجسماني وما فيه أم تبيان الدين، أما ما ضمنته سؤالك من الأمثلة الجسمانية فهي تندرج كجزئيات ضمن البيان

١- البقرة: ٣٠.
٢- الأنعام: ٧٣.

الكلي والعام في القرآن لهذا العالم الجسماني، فبيان القانون الكلي الذي يحكمها وجوداً وبقاءً وتركيباً بياناً لها، وأرجو أن لا يكون هناك خلطاً بين الذكر التفصيلي والبيان الذي نحن بصدده، فذكر هذه الأمور الجسمانية التي ذكرتها أنت بالتحديد غير موجود في القرآن؛ لأن القرآن ليس كتاب ذكر وإحصاء للموجودات في عوالم الملك والملكوت، وهناك كتاب إحصاء هو غير القرآن، قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[1]، التفت إلى اختلاف هذه الآية عن الآية التي نحن بصددها ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾، فهناك فرق كبير بين إحصاء كل شيء وبين تبيان كل شيء، فتبيان الموجودات في القرآن موجود ضمن البيان العام لعوالم الخلق وحقيقتها، أما عدم إدراك الناس لهذا البيان الكلي فهو ليس لعدمه بل لقصورهم عن الإدراك، وهذا القصور أيضاً هم سببه وإلا فهم يمتلكون في فطرتهم القدرة على إدراك هذا البيان.

فهم في الحقيقة إيمانهم مشوب بالشك والريب الذي يجعلهم على أقل تقدير يبتعدون عن تدبر الصادر وإن ادعوا الإيمان بالمصدر، فمثلاً عندما يصرخ بهم القرآن منذ أكثر من ألف عام بقوله تعالى: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[2]، وعندما يقول لهم الأنبياء والأوصياء إنكم في هذه الدنيا تعيشون في الوهم والحقيقة هي الحياة الأخرى يضحكون منهم.

نعم، فالذين في زمانهم يضحكون منهم وبصلافة؛ لأنهم يكذبونهم أصلاً، والذين يأتون بعدهم يكذبون رواياتهم بحجة أنها غير معقولة ولا يقبلها العقل، إذن فالناس لا يقبلون من الغيب؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب بل يؤمنون بهذه الأجسام فقط، ولذا تجدهم لا يصدقون ما ورد وما يرد عن الأنبياء والأوصياء والقرآن من أن الدنيا دار ممر، وأن المادة الجسمانية مجرد وهم، وأن الآخرة هي الحقيقة الثابتة، في حين عندما يخبرهم مختبر تجريبي مثلاً المختبر الأوربي بأن المادة وهم ولا وجود لها وأن الموجود هو فقط قوة واحدة والمادة تكثف قوى تعود في الأصل لقوة واحدة فهم يستقبلون هذا الإخبار برحابة صدر ويصدقونها، حتى وإن لم يمكنهم

١- يس: ١٢.
٢- العنكبوت: ٦٤.

تعقلها أو إدراكها، فهم يثقون بعلماء الفيزياء وبأقوالهم مثلاً لأنهم لمسوا تطبيقاً في هذا العالم الجسماني لكلامهم في السابق، في حين أن كلام الأنبياء والأوصياء هو غيبي وبعيد في أكثر الأحيان عن هذا العالم الجسماني، ويحتاج أن يثق الناس بالغيب والقوة الغيبية الحقيقية ليلمسوا آثاره، أي أن الثقة هنا تسبق الأثر في حين أنهم لمسوا الآثار الجسمانية للمادي الجسماني ثم وثقوا به، وبما أن الناس كل تركيزهم على هذا العالم ولا يكادون يرون سواه فتكون النتيجة أنهم يؤمنون بالمادي الجسماني ولا يؤمنون بالغيب، أو يؤمنون إيماناً ضعيفاً مهزوزاً يحاولون إيجاده في نفوسهم أو تقويته من خلال آثار جسمانية ملموسة أيضاً، أي إنه نصف إيمان أو ربع إيمان أو عشر إيمان ولكنه أبداً لن يكون إيماناً كاملاً بالغيب، والحال هذه وهي أنه مشوب بالأثر الجسماني الملموس أو المعجزة أو الكرامة كما يسمونها.

مع الأسف فإن خيار أكثر الناس الذي لا يكاد يتبدل هو هذا العالم الجسماني وما فيه، وحتى إن أرادوا اختيار الإيمان بالغيب فهم يعمدون إلى أن يكون هذا الإيمان من خلال هذا العالم الجسماني فيقعون في تناقض كبير عندما يطلبون وبإصرار أن يكون المعرف بالغيب هو حدث جسماني معجز، بل ويصرون في كثير من الأحيان أن يكون قاهر وغير قابل للتأويل أو الشك، فهم يريدون أن يتحول الغيب إلى جسماني محض فيكون الإيمان بالغيب صفر في ساحة إيمانهم المدعاة، ومع هذا فهم يعتبرون إن طلبهم صحيح ومشروع ليؤمنوا بالغيب، هل ترى كم هو في تناقض صارخ هذا الذي يطلبون هم مع ما يطلبه الله منهم وهو الإيمان بالغيب؟ فإذا عرفنا أن الله سبحانه وتعالى هو الغيب الحقيقي وتدبرنا حال هؤلاء لوجدناهم تماماً عبدة أصنام مئة بالمئة، فهم قد عَبَّدوا أنفسهم لهذا الصنم الأكبر أو العالم الجسماني.

نعم، هناك استثناء وهم ثلة قليلة نصروا الغيب والحقيقة فرأوا آثارها في أنفسهم وفي الأفاق، حتى كأني أسمعهم جميعاً يقولون: (يا ليت قومي يعلمون)، إذن فالحقيقة المرة التي لابد أن يعترف بها الإنسان الذي يدعي الإيمان أولاً ويواجه بها نفسه لكي يعرف الحقيقة هي أنه لا يمتلك إيماناً نقياً خالصاً، بل أن إيمانه – إن كان يمتلك نسبة إيمان بالغيب – مشوب بالشك والريب، وطالما هناك شك بالمصدر فلا يمكن الاستفادة والانتفاع من الصادر.

نعم، فهذه هي الحقيقة التي انطوت عليها نفوس كثير من الناس الذين يدعون الإيمان، ولا يهمني إن اعترفوا بها أم أنكروها في العلن، فهم يؤمنون بوجود الطعام والشراب، وبوجود أمريكا، وبوجود القنبلة النووية، وبوجود هذا العالم الجسماني أكثر ألف مرة من إيمانهم بوجود الله سبحانه وتعالى، هذه هي الحقيقة وهذا هو الداء وإن لم يواجهوا أنفسهم به وإن لم يكتشفوه ويكاشفوا أنفسهم به فلن يجدوا الدواء ولن يشفوا من مرضهم العضال أبداً) [1].

* * *

١- الجواب المنير - السيد أحمد الحسن عليه السلام: ج٤ سؤال رقم ٢٨٣.

المعلم الإلهي هو الميزان

واحدة من ثمار التصور البشري الذي هو في واقعه لا يخلو من أن يكون رشحة إلهية استفادتها البشرية على طول مسيرتها التاريخية من البعثات السماوية التي ما انقطعت ولن تنقطع إلى أن يرث الله الأرض وما عليها اعتبار وجود (المعلم) وجوداً مفصلياً في الحياة.

وهذا التصور زرع في الذهن البشري نتيجة احتياج البشرية إلى عملية التعليم احتياج ضرورة وليس اختياراً؛ لأنه بلا معلم سيكون الناس في تيه، ولا يعود هناك ميزان يعرف به الناس قيمة ما يقدمون ولا مقداره ولا قدره، ولا يعرفون النفع فيما يعملون من الضرر، إذ بلا معلم قد يعمل المرء ما يتصوره نافعاً ويكون واقع عمله فيما يفسد ويضر.

إن انعدام المعلم في مجتمع ما هو شبيه لانعدام الراعي عن القطيع، فلا شك في أن حالاً كتلك ستجعل من القطيع نهبة للذئاب، بل انعدام الراعي هو خدمة كبيرة تقدم للذئاب المتربصة، فالمعلم بأصل وجوده ووظيفته هو رائد وقائد، فكونه رائداً باعتباره العارف الأصل والدليل، وكونه قائداً فهو الجهة التي يحتاج لها جميع من يتبعه وهو غني عنهم، والحاجة إليه لا تنقطع ولا تنتهي، ذاك لأن كرمه وعطاءه من عطاء من نصبه، ولذا قال القائل: كاد المعلم أن يكون رسولاً.

وواقع الحال أن المعلم رسول وليس (كاد)، ولكن استعمال القائل لمفردة (كاد)؛ ليكشف أنه لا يعني المعلم الإلهي بل يعني المعلم البشري الذي هو رسول التصورات البشرية، وليس رسولاً من الغني المطلق، ولذا كان المعلم البشري بهذا المقام الذي بينه القائل أنه (كاد) وليس هو رسول، أما في النظام المعرفي الإلهي فالرسول هو المعلم والمعلم هو الرسول، ولعل شهادة الناس للمعلم البشري هو بيان كاشف لحقيقة موقع المعلم، بل إن البشرية ما كانت لتعرف الدور المفصلي في الحياة للمعلم لولا بعثة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام معلمين للناس، ولكنهم معلمون حقيقيون، وليسوا معلمين صوريين !!

فالمعلم البشري هو معلم صوري، اتخذ هذه المكانة ليس باعتبار عطائه بل باعتبار عطاء المعلم الإلهي، وافترق عنه كونه يغترف من محدود، وهذا المحدود مهما اتسعت مساحته

وتكاثرت تفاصيله فهو يبقى محدوداً مفتقراً، ولذلك فالمعلم البشري الذي كثيراً ما يصطلحون عليه بـ (الفيلسوف أو الحكيم) هو يغترف من إنائه الذاتي، وهذا الإناء يختلط فيه الخبيث مع الطيب، بل كلما ذهب بعيداً بتصوره أنه معلم صار اغترافه من الخبيث أكثر من الطيب.

نعم ربما يرى الناس ما يظهر منه نافعاً لحاضرهم، ولكنه قطعاً لا يكون نافعاً لمستقبلهم، ولو التفت الناس إلى أن مهمة المعلم الحقيقية هو أن يبني الحياة للغد وليس لليوم، ويهيئ الناس للمستقبل، ولا يعدُّهم للحاضر، وهذا فارق خطير ربما لا ينتبه له الناس ولكنهم يعيشون ثماره ويعانون منها، ولكي يهربوا من هذه المعاناة فكثيراً ما يعودون إلى الماضي لاجتراره في الحاضر؛ لأن ماضي المعلم والتعليم كان أكثر قيمة من حاضره !!

وهذا الحاضر الذي أدركوا فساده اليوم كان يعتبر للماضي مستقبلاً، وكان الماضي حاضراً، فبعودتهم لاجترار الماضي يشهدون أن المعلم البشري ليس له قدرة على إعداد الحياة للمستقبل، بل كل ما يمكنه أن يسيِّر حال الحياة في الحاضر.

أما مع المعلم الإلهي فالأمر مختلف تماماً، بل إن هذا الفارق هو فيصل بين المعلم الحقيقي والمعلم الصوري، فالمعلم الصوري إنما هو معلم عرف بعض ما يحيط به ليس أكثر وتوهم قدرته على تكييف الحياة على وفق ما تحصله من معلومات عن واقعه ومزجها بتصوراته وما يتوهمه ليخرج بثمرة قد يبدو ظاهرها أنيقاً ومدهشاً، ولكن قطعاً باطنها إن لم يكن فاسداً فهو باطن فارغ لا شيء فيه نافع.

ومن يريد أن يختبر هذه النتيجة الخطيرة والمهمة فليعد إلى نتاج الفلسفة والفلاسفة، ليرى أنه نتاج لا تُنكر قدرته على الإدهاش والإثارة نتيجة ما يعرضه من كم هائل يشغل الناظر عما يخفي هذا الكم الهائل من نوع وقيمة، ويعلم المعلم البشري أن أعين الناس لا تقع على النوع بقدر ما تقع على الكم، وترى الحاضر المتصل بماضيها، ولا ترى الحاضر الممتد إلى المستقبل.

ولعل أبسط درس استبانته البشرية اليوم من جراء لهثها خلف المعلم البشري، وإعراضها عن المعلم الإلهي، هو أنها توهمت أن ما يقدمه المعلم البشري من تغيير للواقع المادي للحياة سيصل

بالبشرية إلى حياة رفاه ربما يعجز الخيال عن تصورها، وبهذا الوهم الخطير هرولت البشرية بسوادها خلف المعلم البشري !!!

وهذا الوهم استثاره المعلم البشري من خلال ما أحدثه من تغير بالحياة المادية الحاضرة إذا ما قيس بصورة الحياة في الماضي القريب أو البعيد، وهو يعلم أن هذه المعادلة تقع في ساحة الإمكان لعموم الناس، كما أن هذا النهج سيثير بهم طاقة الخيال والتصور ويوهمه أنه بإمكانه أن يكون صانعاً للحياة، ولا شك في أن هذا الهاجس قادر على أن يجعل من الناس في حالة من النشاط لا سبيل معها لثنيهم أو إيقافهم؛ لأنهم يتوهمون أنهم هم من سيصنع الحياة، تماماً كما قال الحق سبحانه: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1]، واستخفاف المعلم البشري للناس هكذا كونه شغلهم في تكييف الحياة، وقدم لهم تصورات كثيرة عن سبل التكييف تلك، واجتهد في أن يصرفهم عن التفكر في أن هذه الخامات التي يكيفونها على وفق تلك المناهج التي عرضها المعلم البشري ما مصدرها، من أين، وهل لها نظام تجري فيه، ورسالة تؤديها، أو هي خامات هكذا وجدت لتكون مستجيبة لتكييف المعلم البشري، ومن يعمل معه ويتبعه ؟؟؟

هذه الأسئلة يجهد هذا النهج البشري في التعليم على أن يغفلها ويتجاوز عنها، بل يعمد إلى الإعراض عن التفكير بها أصلاً، ويوهمهم أنهم سائرون في الاتجاه الصحيح هو ما يرونه من طلائع ثمار هذا العمل حتى يظنون القدرة التي لا ولن تكون لهم؛ لأنهم عاجلاً ما سيرون بأم أعينهم حصاد ما زرعت أيديهم، فلا قيمة للعمل إلا عند الحصاد، وللأسف فالبشرية توهمت أن التطور الحقيقي هو التطور الذي يحدث في واقعها المادي، وأغفلت واقعها النفسي متخلفاً تماماً، بل يصل الحال من تخلفه أن يغرق في تسخير ما توهمه تقدماً إلى تنفيذ رغباته وشهواته الحيوانية !!

١- يونس: ٢٤.

إن هذا العالم الذي يسمونه (المتقدم) وصل بالبشرية إلى منظومة أخلاقية تترفع عن العمل بها حتى البهائم والحيوانات، والسبب هو أن هذا العمل الذي قامت به البشرية وتوهمته تقدماً جعلها تغفل تماماً عن تطوير الواقع النفسي على وفق نظام صانع الأنفس، واجترحوا لهم أنظمة يسوسون بها الحياة ويظنون أنها قادرة على أن توفر لهم ما يتمنون ويريدون، وكل ما يتمنون ويريدون هو هذه الحياة الدنيا، غافلين ومتغافلين عن أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا دار ممر، ومزرعة تطرح ما يزرع فيها، ولكن هذا المزروع يحتاج إلى من يشتريه، فإذا ما أنتجت هذه المزرعة حصاداً لا يريده المستقبل، فسيكون هذا الحصاد وبالاً على المزرعة والعاملين فيها، ولا عبرة بنشاط الزراع في موسم الزراعة أو نضارة الزرع في مرحلة من مراحله، بل العبرة والغاية أن يجد هذا الزرع سوقاً لتصريفه في المستقبل وعندما لا يجد سوقاً فسيكون وبالاً على زارعه.

وهذا تماماً حال البشرية اليوم، فكل زرعها صار وبالاً عليها اليوم، فكل هذا الذي تتوهمه تطوراً صار سبباً في جملة من المصائب لا تستطيع البشرية إنكارها، ولكن المكر والخداع لا يتوقف، فلم نجد أحداً يرمي التبعة على نهج العمل الذي تنتهجه البشرية بل هم يعملون على استحضار شماعات يعلقون عليها أسباب هذا الدمار الهائل.

وليس أظهر اليوم من مصيبة هذا الارتفاع الخطير لدرجات الحرارة، وانتشار الأمراض والأوبئة، والبلاءات التي أعلنت وتعلن البشرية العجز حيال مواجهتها، بل تسوِّقها هكذا تحت عناوين لا ترقى أن تكون ذات فائدة، من مثل (غضب الطبيعة)، و(الأحوال المناخية السيئة)، وما إلى ذلك من تعابير وأوصاف لا تكشف إلا عن سوء حصاد ما زرعته البشرية، وإنها لم تلفت إلى أنها إذا ما عملت خارج المنهج الإلهي واستناداً إلى مناهج تضعها هي فإن الحصاد سيكون على الصورة التي ترى.

والحق سبحانه حتى مع إعراض البشرية عن نهجه لا يتركهم أو يتخلى عنهم، بل في كل جهة تتوجه إليها البشرية ترى لله سبحانه آية تبين لهم أنهم ساعون بالاتجاه الخطأ وعليهم تصحيح المسار، ولكن البشرية تتجاهل تلك الآيات لتصل بالنهاية إلى هذه النتيجة المخزية عندما يستبين لها ما تصورته نهجاً مطوراً لها تجد أن ثماره بهذا السوء، وبهذه العفونة.

أما المعلم الإلهي فواقعه الذي يعمل به ويجتهد في إصلاحه وعلى وفق النهج الإلهي هو النفس الإنسانية، ويعلم الناس لماذا عليهم إصلاح أنفسهم ؟ وكيفية إصلاحها ؟ وما الغاية المتحصلة من وراء الإصلاح على وفق هذا النهج ؟ وهذه الآلية في عمل المعلم الإلهي غائبة تماماً في عمل المعلم البشري، بل لعل النفس هي آخر ما يمكن أن يفكر فيه المعلم البشري، حيث ترك العمل بهذه الساحة بدعوى (الحفاظ على الحرية الشخصية).

وواقع الحال أن المعلم الإلهي لا يتدخل مطلقاً بما يصطلحون عليه بـ (الحرية الشخصية) بل غاية ما يقوم به المعلم الإلهي هو بيان واقع هذه النفس، وواقع الصراع الحاصل فيها والمنهج القادر على تحقيق صلاحها، ومن ثم يترك الأمر للإنسان نفسه هو يختار بعدما استبان له كل شيء وعرف كل شيء بما يخص صلاحه من عدمه وترك أمر الخيار له، ولذلك قال الحق جل وعلا: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1]. وهذا ما لا يتوفر عليه المعلم البشري مطلقاً، فكل مهمة المعلم البشري هو حقن المتعلم بكم هائل من المعلومات مخلوطاً غثها بسمينها من غير أن يشتغل في بيان هذا الكم الهائل من المعلومات، وكيف يتعامل معه الإنسان، وما الغاية التي تتحقق من وراء هذا الخليط ؟؟!!

ولذا فالبشرية عاشت الأمرين بشكل واضح، عاشت تحت المعلم البشري ووجدته مهموماً في أن ينصب من نفسه إلهاً يعبد، وصنماً يقدسه الناس في كل حالاته، وجهة مدح لا تقدح مطلقاً، فإن حصل خير (مزعوم) فهو ببركاته، وإن حصدت الناس شراً فهو بسبب جهلهم وقصورهم في فهمه، فيتحمل الناس وزر الشر، ولا يحصدون من العائدات شيئاً، ويكون الناس على وفق نهج المعلم البشري كما يقول المثل: (كالسمك مأكول مذموم) !!

فهو يستفرغ كل طاقاتهم لغاياته، وكذلك هم شاخصة الشيطان التي ترجم عند حصول المأساة وعلى ذلك قام نهج المعلم البشري، بينما المعلم الإلهي فأولى خطواته هو أنه يكشف عن وجه العدو الحقيقي الساكن بين جنبي الإنسان ويدعوه إلى العمل الجاد لقتال هذا العدو وقتله.

١- البقرة: ٢٥٦.

وكذلك يعمل المعلم الإلهي إلى أن يكون واحداً من بينهم ولا يرضى لهم أن يروه صنماً يعبد من دون الله سبحانه، وهذا ما فضح كل من ينهج غير نهج المعلم الإلهي بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[1].

وهذه الآية فضحت النهج المنحرف الذي يدعي أن المعلم الإلهي هو صنم يعبد من دون الله سبحانه، فوظيفة المعلم هي تعريف الناس بربهم وبيان الغاية من خلقهم، ويكشف لهم عن النهج الموصل لتلك الغاية، ومن ثم فهو يعمل – أي المعلم الإلهي – على تربية الناس على أن دوره لا يتجاوز المساحة التي بينها المنهج الإلهي، فهو إنما مفصل من مفاصل هذا المنهج وليس هو المنهج أو هو بديل عن المنهج أو هو صانع المنهج على وفق هواه، بل هو يعمل ما كلفه به الحق سبحانه، ومن ثم فكل إنسان بالمنهج الإلهي هو مكلف، ومهمة المعلم أن يبين له حدود تكليفه، وبيان السبيل الموصل إلى الله سبحانه، ومن ثم على الناس أن تشرع في الحركة والعمل على وفق ذلك المنهج الذي تعلموه تحت إشراف المعلم الإلهي.

إذن ساحة عمل المعلم الإلهي الرئيسية والمنطلق هي النفس الإنسانية، وهذا تماماً هو عكس ساحة عمل المعلم البشري الذي يجتهد في العمل بالساحة التي هي خارج النفس الإنسانية، وإذا ما لزمه العمل داخل النفس الإنسانية فهو يعمل عمل المحفز لكل مراداتها وشهواتها شريطة أن لا تصطدم بالواقع الخارجي الذي عمل على تكييفه على وفق ما ارتآه من منهج تنظيمي للواقع.

وهذا الذي يعمله المعلم البشري يشكل آلية استدراج وفساد لن يستبين الإنسان حقيقتها في واقعه بل سيتبين أثرها في مستقبله، أما المعلم الإلهي فكل همه أن يكشف للناس أن هذا العالم هو عالم امتحان لا قرار فيه ولا استقرار، وإذا ما شاؤوا أن يعملوا عملاً حقيقياً فليعملوا إلى بيوت سيؤوبون إليها ويتركوا الاهتمام في بيوت هم مفارقوها، بمعنى على الإنسان أن يعمل على عمارة نفسه وإصلاحها، والانشغال بها عن عمارة جسده والاهتمام بمتطلباته، فهذا

١- المائدة: ١١٦.

الجسد عما قريب هو مفارقه شاء أو أبى، أما نفسه التي انشغل عنها فهي مآله وموطنه الحقيقي، ولذلك عليه العمل على صلاحها وإصلاحها على وفق المنهج الذي جعله صانعها لصلاحها.

ولقد شكل المعلم الإلهي الميزان الذي من خلاله يستبين الناس قربهم أو بعدهم من القيم الإلهية الثابتة كالخير والحق والعدل والمعروف، وهذه القيم هي التي تشكل كفة الميزان الثابتة التي يزن بها الإنسان نفسه عندما يضعها بالكفة المقابلة؛ ليستبين له قربه أو بعده من تلك القيم الثابتة التي يشكل القرب منها دالة على صلاح النفس البشرية، بينما يدل البعد عنها على خلاف ذلك، قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ﴾[1].

فالوزن الحق هو المعلم الإلهي الذي يستبين من خلاله الإنسان ثقل كفة ميزانه أو خفتها، بينما المعلم البشري فلأنه ميزان صوري وليس حقيقياً فهو لا يقول بثبات تلك القيم بل على العكس فهو يصرح بنسبيتها واختلال الميزان حيالها؛ لأنه لا يستطيع أن يدعي أنه ميزان حقيقي، فهو في قضية الميزان موزون وليس وزناً، ولو كان معلماً حقيقياً لكان وزناً لا موزوناً، ولذلك دأبت الطروحات البشرية على وصف القيم الأخلاقية بأنها قيم نسبية، وبهذا الوصف يكشف المعلم البشري عن كونه موزوناً لا وزناً، بينما المعلم الإلهي فهو يدافع عن ثبات تلك القيم وكونها قيماً يوزن بها ليكشف للناس أنه وزن يوزن به وليس موزوناً كما هو المعلم البشري. وتلك فارقة أخرى تكشف للناس المعلم الإلهي من غيره.

* * *

١- الأعراف: ٨ – ٩.

المتلقي في الميزان

لعل من أشد حالات الصراع التي يعيش المتلقي في خضمها هي قبول سلطة النص الجاري على لسان المعلم، ليس قبولها حسب بل الانصياع لأوامره طوعاً، ولابد أن يكون هذا الانصياع مستنداً إلى معرفة حقيقية بالنص ومعلمه، أو كما يصطلحون عليه اليوم بـ (الدستور والقائم عليه)، ولقد حاولت البشرية على طول رحلتها التاريخية في هذا العالم الدنيوي أن لا تنصاع إلى ما هو مفروض عليها من السماء على الرغم من أن هذا (المفروض) يكفل لها تفعيل كل إمكاناتها المعرفية ويجعلها تعمل على وفق النظام الذي صنعت به، ولكنها آلت على نفسها أن تخرج من سلطة النظام الوجودية من خلال تعطيل سلطته المعرفية (الإدارية).

إن تعطيل هذه السلطة يتطلب من البشرية استحداث نظام يقوم بإدارتها؛ لأن الجانب الإداري له ملازمة مع النظام حتى لا انفكاك بينهما، بمعنى لا يمكن أن يكون هناك نظام وجودي من دون سلطة إدارية، وكذلك لا قيمة بسلطة إدارية من دون نظام وجودي، وهذا الأمر التفتت له البشرية جيداً عندما فشلت في محاولة الإبقاء على النظام الوجودي (الإلهي) والإعراض عن السلطة الإدارية المنصبة من صانع النظام، وحاولت أن تستعيض عن السلطة الإدارية الأصل بسلطة إدارية تدعي أنها من خلال تحصيل شيء من المعرفة بالنص الإلهي الذي يشكل النظام الوجودي أباح لها القيام بمهام السلطة المنصبة من صانع النظام، ولكنها سرعان ما تختلف وتتعدد السلطات، فيستبين الخلل واضحاً، فكيف يكون النظام واحداً وسلطات إدارته متعددة ؟؟!!

فهذا السؤال الذي أنتجه الواقع المنحرف في التعامل مع النظام الإلهي كشف أولئك الذين حاولوا أن ينزوا على كرسي الإدارة واستبان انحرافهم وتجاوزهم على مكان هو ليس لهم ولن يكون، ولكنهم على الرغم من انكشاف هذا الأمر واضحاً إلا أنهم ورغبة في الحفاظ على تواجدهم المقلوب على الكرسي فعلوا كل ما يستطيعون؛ لتزوير ذاكرة الشعوب وتغييب النصوص الفاضحة التي تكشف حقيقة هذا التزوير والانحراف.

وعلى الدوام بقيت البشرية غير بعيدة عن هذا الأسلوب في التعامل شاهدة على نفسها بالعجز بإزاء إمكان تصنيع نظام قادر على قيادة الحياة خارج النظام الإلهي، ولكن هذا العجز لم يمنع عدداً من أفرادها من المحاولات المتكررة، وأولئك النفر اصطلح عليهم بـ (الفلاسفة) الذين اجتهدوا في صنع جمهوريات (يوتوبيا) مستفيدين من الوعد الإلهي الذي أعلن منذ لحظاته الأولى إنما هو نظام أنزل لتحقيق (دولة العدل والصدق والرحمة) على الأرض.

لذا فالفلاسفة لم يبتدعوا فكرة العدالة بل هي مبدأ إلهي ثابت، ولكنهم عملوا على تكييف ذلك المبدأ بحسب تصوراتهم، فجل عملهم انصب في التكييف، ولذا فكل المدن الفاضلة التي خططوا لها هي لا تخرج عن المبدأ الذي أعلن عنه النظام الإلهي وهو تحقيق (العدل)، ولكن المشكلة ليست في الدعاية للمبدأ بل المشكلة تكمن في تكييفه وتحويله إلى نظام عملي يتوضح أثره على الواقع الخارجي.

وهنا افترقوا، فكل جماعة قدمت تصوراً ما لتحقيق ذلك في الواقع العملي، وعندما شرعوا في العمل وقعوا في الكثير من المطبات التي كشفت لهم عجزهم في تكييف الواقع على وفق مبدأ العدالة الحق، ولكن على الرغم من هذا الفشل المتكرر استمروا في السير بطريق كلما أسرعوا فيه ازدادوا بعداً عن سبيل الهداية، إلى أن وصلوا إلى النقطة الحرجة التي جعلتهم في الخيار، إما أن يعودوا إلى النظام وإدارته المنصبة، وهم الذين فارقوه بسبب الإدارة المنصبة، أو يجترحوا لهم نظاماً وسلطة إدارية تشكل ثمرة هذا النظام المجترح، فكان سواد البشرية ميالاً إلى هذا الخيار؛ أي أن يجترحوا نظاماً وسلطة إدارية نابعة من هذا النظام الموضوع، وبذلك عملوا على تعطيل النظام الإلهي فضلاً عن إدارته المنصبة، ومن هنا بدأت المعاناة الحقيقية.

ربما تحاول البشرية فيما تحصد من ثمار شوكية المذاق والملمس نتيجة لانفصالها التام عن النظام الإلهي، من مثل ما نراه من كوارث يصطلحون عليها بـ(الطبيعية) تمييزاً لها عن الكوارث البشرية التي هي الحروب وجرائم القتل والتخريب، أن تجعل حصول الكوارث في خانة الطعن بخالق النظام الأصل، على الرغم من أن تلك الكوارث الطبيعية هي ناتجة عن عبث النظام الموضوع وسلطته الإدارية في مجريات النظام الأصل.

ولذا فالتخريب الذي أنتجه النظام الموضوع في قبال النظام الإلهي الأصل هو السبب الرئيس في تخريب النظام النفسي للبشرية، وهذا التخريب النفسي استبان أثره في الواقع واضحاً، فكل فعل يستلزم ردة فعل (وهذا قانون ثابت)، ففعل النظام الموضوع وإدارته تستلزم حدوث ردة فعل في النظام الأصل الكائن، وردود الفعل تترجم بزلازل، وفيضانات، وبراكين، وهزات أرضية، ومن يتأمل ذلك يرى يد العبث البشري واضحة في صناعة تلك الثمار الشوكية.

إن حديث الرسول صلى الله عليه وآله بشأن قائم آخر الزمان، أي القائم بإدارة النظام الإلهي المنصب من الله سبحانه هو من (**يملؤها قسطاً وعدلاً بعد أن ملأها الفجار ظلماً وجوراً**) هو من أوضح الدلالات على قيام دولة العدل الإلهي التي تأتي دائماً مقترنة بذكر المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله، وهي تشير إلى امتلاء الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملأها الفجار ظلماً وجوراً.

ولذا كان سائداً وما زال لدى غالبية الناس أن معنى الأرض منحصر بهذه المساحة التي نعيش عليها وما فيها من شجر وحجر ونبات وحيوان وإنسان، نعم هذا المعنى للأرض هو واحد من معانيها، بل لعله المعنى الشائع استعماله لدى الناس والذي حصروا أنفسهم في إطاره، مع أنهم عندما يقرؤون القرآن يرون أن لابد من معان أخرى لمفردة الأرض هي غير التي درجوا عليها، وإلا لو كان المعنى منحصراً بما لديهم لاحتج الناس على الله سبحانه في كثير من المواقف والمواضع، حيث يأتي لفظ الأرض وما يتعلق بها دال على الأمن والأمان، وواقع الحال مخالف لذلك الوصف تماماً فلا أمن ولا أمان !!! فكيف يصف الحق سبحانه الأرض بأنها أمن وأمان وواقعها يخلو من ذلك ؟؟!!

قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ**﴾[1]، وفي هذه الآية وجه الإمام الصادق عليه السلام سؤالاً لأبي حنيفة (رأس المذهب الحنفي) في رواية طويلة نذكر منها محل الشاهد، حيث سأل الإمام الصادق عليه السلام أبا حنيفة: (فقال: **أنت فقيه أهل العراق** ؟ قال: نعم. قال: **فبما تفتيهم** ؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه. قال: **يا أبا حنيفة، تعرف كتاب الله حق معرفته، وتعرف الناسخ والمنسوخ** ؟ قال: نعم، قال: **يا أبا حنيفة، ولقد ادعيت علماً، ويلك ما جعل الله ذلك إلا**

١- سبأ: ١٨.

عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا، وما ورثك الله من كتابه حرفاً، فإن كنت كما تقول – ولست كما تقول – فأخبرني عن قول الله (عز وجل): ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾[١] أين ذلك من الأرض ؟ قال: أحسبه ما بين مكة والمدينة، فالتفت أبو عبد الله (عليه السلام) إلى أصحابه فقال: تعلمون أن الناس يقطع عليهم بين المدينة ومكة فتؤخذ أموالهم ولا يأمنون على أنفسهم ويقتلون ؟ قالوا: نعم. قال: فسكت أبو حنيفة، فقال: يا أبا حنيفة، أخبرني عن قول الله (عز وجل): ﴿مَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾[٢] أين ذلك من الأرض ؟ قال: الكعبة. قال: أ فتعلم أن الحجاج بن يوسف حين وضع المنجنيق على ابن الزبير في الكعبة فقتله كان آمنا فيها ؟ قال: فكست ...)[٣].

وقد بيَّن الإمام أحمد الحسن (عليه السلام) دلالة أين ذلك من الأرض عندما أجاب على سؤال يتعلق بمعنى الصلاة على محمد وآل محمد (صلى الله عليه وآله) حيث قال (عليه السلام): (قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[٤]، أي أن يطلب المؤمنون من الله أن يصلي على محمد، فيقولوا: (اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وسلّم تسليماً)، ومعنى وسلّم تسليماً: أي أعطهم الأمن والأمان، والأمن هو بيعة القائم (عليه السلام)، والأمان يكون في دولة القائم (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾.

وقال تعالى: ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ ﴾)[٥].

وهذا الأمر كان قد ذكره الإمام الصادق (عليه السلام) حيث ورد في محاورة الإمام الصادق (عليه السلام) مع أبي حنيفة جاء في آخرها: (... فقال أبو بكر الحضرمي: جعلت فداك، الجواب في المسألتين، فقال: يا أبا بكر، سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين، فقال: مع قائمنا أهل البيت،

١- سبأ: ١٨.
٢- آل عمران: ٩٧.
٣- بحار الأنوار: ج٢ ص٢٩٢.
٤- الأحزاب: ٥٦.
٥- المتشابهات - للإمام أحمد الحسن (عليه السلام):ج٣ سؤال رقم ١١٦.

وأما قوله: ومن دخله كان آمناً، فمن بايعه ودخل معه ومسح على يده ودخل في عقد أصحابه كان آمناً) [١].

واستناداً إلى ما قدمه آل محمد عليهم السلام من دلالة للفظ (الأرض) وما يتعلق بها يستبين للقارئ أن ما تعارف عليه الناس من معان للألفاظ ما هو إلا قطرة من بحر المعاني، فالألفاظ في هذا العالم تقوم مقام الرموز الدالة على معانٍ كثيرة، وعالم المعاني هو عالم الملكوت، وعالم الملك هو عالم الألفاظ وشيء من المعنى، وهذا الشيء من المعنى متيسر لجميع الناس.

ولكن المعاني بكلها لا يعلمها إلا من كان له حظ في عالم الملكوت، وسادة عالم الملكوت هم المعصومون من آل محمد عليهم السلام، ولذا فهم بحق ترجمان القرآن، وهم أهل الذكر كما وصفهم ربهم سبحانه في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[٢]، وهذا الأمر غاية في الأهمية، ولذلك عملت كل السلطات الطاغوتية على طول هذه المسيرة التاريخية للبشرية على طمسه وتعفيته وتضييع أثره ولكن أنى لهم ذلك، فحاجة الناس إلى تراجمة وحي الله سبحانه أمر ثابت بفطرتهم ولا سبيل لمحوه، وكل محاولات الطاغوت بشقيه السلطة الدينية والدنيوية التي عمد فيها إلى النصوص المقدسة وحاول عزلها عن الناطقين بها باءت وتبوء بالفشل دائماً، ولولا ذلك لنجح الطواغيت في طمس أمر الله سبحانه، ففي كل زمان هناك ترجمان للنص الإلهي يقف بوجه الطاغوتية ليفضح تسلطها على النصوص، وسقم هذا التسلط، وما فعله الإمام الصادق عليه السلام مع أبي حنيفة هو صورة من هذه الصور المشرقة التي تكشف زيف تلك السلطات التي استجهلت العامة واستخفتهم فأطاعوها.

ولو تأملنا تركيز محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله على بيان أن الذي سيملؤها قسطاً وعدلاً هو مهديهم عليهم السلام، وعلى وفق ما بينوه لتبين لنا أن هذه الأرض التي سيملؤها الفجار ظلماً وجوراً – وإن كان الذهن سينصرف إلى هذه الأرض التي نسير عليها – هي أنفس الناس، وليس ما انصرف إليه ذهن العامة، وما يؤكد هذا الانصراف للدلالة ما يظهر من آثار عليها كهذا الدمار

١- علل الشرائع: ج١ ص٩١.
٢- الأنبياء: ٧.

الهائل الحاصل بها على جميع المستويات والأصعدة، ولكن الأهم الانتباه إلى من فعل ذلك وأسس لذلك، بمعنى أن الأرض التي يملؤها الفجار ظلماً وجوراً هي تلك الأنفس البشرية التي انتهك حرمتها الطواغيت وعبثوا بها أيما عبث فكيفوها على وفق ما يريدون ويأملون؛ لأنهم يعرفون تماماً أن هذه الأنفس هي أوعية أوجدها خالقها سبحانه كي تكون حاملة لنوره عاكسة له ومعرفة به، ولم يخلقها لتكون وعاء للظلمة والشر والفساد.

فالظلم هو بإشاعة الظلمة، والجور هو بوضع النفس البشرية في غير موضعها التي وضعها الله سبحانه بها، ولذلك فعمل المهدي عليه السلام ساحته النفس البشرية أولاً وبالأساس، وليس كما يفهم عامة الناس أن إصلاح الإمام المهدي عليه السلام هو هذه الأرض التي نسير عليها، وإن كان أثر عدله سيعم كل ذرة من ذرات الكون، ولكن الإصلاح الأهم هو إصلاح الأنفس البشرية التي خربها النهج الطاغوتي الذي عمل كل هذه السنين العجاف الطويلة على تخريب الفطرة الإنسانية، والعمل على تحويل من كرمه خالقه من رتبته التي جعلها الله سبحانه لها، وهي أن يكون مكلفاً بمعرفته سبحانه ومن ثم معرفاً به جل وعلا لمن دونه، وإذا به يزري بنفسه ويتسافل حتى يزاحم البهائم في رتبتها التي رتبها بها الله جل وعلا، بل يزداد إزراء بنفسه حتى ينزل أدنى من رتبتها فتصير هي أرقى منه رتبة، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[1].

وما كان هذا المخلوق أن يصل إلى هذه المرتبة المتدنية لولا عمله بالنهج الطاغوتي الذي أقام (الأنا) البشري مقام (هو) الدال على الكنه والحقيقة التي من أجلها خلق المخلوق ليكون عارفاً بها ومعرفاً لها، وليعرف ما معنى الحديث القدسي الشريف القائل: (**إن الله خلق آدم على صورته**)، والحديث القدسي القائل: (**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف**) [2]. والخلق العارف به حق معرفته هو محمد صلى الله عليه وآله وآل محمد عليهم السلام، وعلى من

١- الأعراف: ١٧٩.
٢- رسائل الكركي - المحقق الكركي: ج٣ ص١٦٢.

دونهم أن يكونوا صورة منهم؛ لأنهم صلوات الله عليهم هم صورة الله المظهرة لأخلاقه جل وعلا، فكانوا بحق خلفاءه.

فكما أوضح ذلك الإمام أحمد الحسن عليه السلام في كتاب التوحيد بقوله: (فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام والأئمة عليهم السلام وعيسى عليه السلام فقراء إليه سبحانه وتعالى، ويحملون صفة اللاهوت أي أنهم يؤله إليهم في قضاء الحوائج وسد النقص وتحصيل الكمال، وهم يقضون الحوائج ويسدون النقص ويكملون الخلق ولكن بحول وقوة وبإذن الله، فلا حول ولا قوة لهم إلا بالله، كما لا يقدرون على تحريك ساكن إلا بإذن الله، فاتصافهم بصفة اللاهوت كما تبين ليست من نوع إلوهيته المطلقة سبحانه، بلى هم صورته سبحانه وأسماؤه الحسنى ووجهه الذي واجه به خلقه، فبصفة اللاهوت التي اتصفوا بها تعرف إلوهيته الحقيقية سبحانه، فهم ليسوا آلهة تعبد من دونه ولا آلهة تعبد معه سبحانه كما تبين، بل هم عباد مخلوقون يسدون النقص ويهبون الكمال بالله وبإذن الله سبحانه، وهذا معنى اتصافهم بصفة الإلوهية، فهم ليسوا آلهة من دونه وليسوا شيئاً من دون الله، فهم خلق من خلقه قائمون به سبحانه وليسوا آلهة معه، أي أنهم ليسوا في مرتبة الإلوهية الحقيقية بل هم في مرتبة الخلق، فهم تجلي الإلوهية الحقيقية في الخلق، وهذا هو معنى أنهم الله في الخلق، ومعنى أنهم صورة الله، ومعنى أنهم وجه الله وأسماؤه الحسنى، وأيضاً معنى أن الله معنا، وهذا يبين أيضاً أن من عرفهم عرف الله ومن جهلهم جهل الله؛ لأن الله سبحانه واجه سواهم من الخلق بهم، ولأنهم الصورة التي تحاكي اللاهوت الحقيقي.

﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾، أي من محاكاة اللاهوت وبالتالي تعريف الخلق به سبحانه.

﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾، أي يكاد أن يكون نوراً لا ظلمة فيه، ويكاد أن ينير من نفسه ولكنه في الحقيقة ليس كذلك؛ لأن نوره من الله وليس من نفسه، ولذا اشتبه إبراهيم الخليل عليه السلام، وكذا الملائكة في المعراج بمحمد، فمحمد وآل محمد بهذه المرتبة، وغاية

الخلق الوصول إلى هذه المرتبة، وهم نهاية الكمال الممكن للإنسان، ولذا ختم الدين بمحمد وآل محمد، وتختم الدنيا بمحمد وآل محمد) [١].

إذن فالأرض التي سيملؤها المهدي عليه السلام قسطاً وعدلاً هي أنفس الناس عندما يبث في الناس أحرف العلم الممكن للبشرية تعلمها ومعرفتها، وهي السبعة والعشرون حرفاً، وهي أحرف علم التوحيد التي بها تستعيد فطرة الإنسان هويتها، بعد ما حاول نهج الطاغوت أن يغير معالمها ويمحو كل ما يدل على أنها صفحة إلهية الصنع، ولقد اجتهد الطاغوت في العمل على ذلك، وربما استطاع أن يستدرج عدداً كبيراً من الناس ويخرجهم من سبيل الله سبحانه إلى سبيل الشيطان الذي طلب المهلة لهذا الأمر، وقد كشف ذلك الحق سبحانه بقوله تعالى: ﴿**سَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۞ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۞ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۞ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۞ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ**﴾ [٢].

وبعمل الناس على وفق مراد المعلم وهو المهدي عليه السلام وعلى وفق تعليمه إياهم يستبين لهم معنى أنه سيملؤها قسطاً وعدلاً فملؤها بالقسط والعدل لا يتحقق أثره في الواقع الخارجي ما لم يكن له وجوداً في الأنفس التي تتعامل مع الواقع؛ لأن (فاقد الشيء لا يعطيه)، فمن لا يعرف العدل والقسط لا يمكن أن يعمل على وفقهما، وهذا الفهم الذي تقدمه هذه الدراسة هو ما استبان لها، وما فهمته مما طرحه يماني آل محمد عليه السلام من علم في ساحة الواقع، وتدعو هذه الدراسة كل باحث منصف لنفسه إلى النظر في هذا المعين الإلهي الذي وعدنا به الحق سبحانه

١- كتاب التوحيد - للإمام أحمد الحسن عليه السلام: ص١١٥ – ١١٦.
٢- الحجر: ٣٠ – ٤٤.

بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ﴾[١]، ورد عن موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال: **إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمام جديد** [٢].

الله جل وعلا هو من يأتينا بإمام جديد، وها هو الحق سبحانه يأتينا بالماء المعين علم محمد وآل محمد عليهم السلام الذي بعث على يد يمانيهم وقائمهم الإمام أحمد الحسن وصي ورسول الإمام المهدي عليه السلام.

(حدثنا أبي ومحمد بن الحسن رضي الله عنهما، قالا: حدثنا سعد بن عبد الله، قال: حدثني موسى بن عمر بن يزيد الصيقل، عن علي بن أسباط، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ**﴾، فقال: **هذه نزلت في القائم، يقول: إن أصبح إمامكم غائباً عنكم لا تدرون أين هو فمن يأتيكم بإمام ظاهر، يأتيكم بأخبار السماء والأرض وحلال الله عز وجل وحرامه**، ثم قال عليه السلام: **والله ما جاء تأويل هذه الآية ولابد أن يجئ تأويلها**) [٣].

* * *

١- الملك: ٣٠.
٢- كمال الدين وتمام النعمة ج٢ ص٣٣٧ ح٣.
٣- كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق: ص٣٢٥ – ٣٢٦.

مقال في التوحيد

إن الكلام في الوحدانية يقتضي منا أن نعرف أن لهذه الوحدانية شقين:

الأول: وجودي قهري، وفي هذا الشق تتساوى كل المخلوقات سواء كانت إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً أو أي خلق من خلق الله، وفي هذا الشق لا تفاضل ولا تمايز ولا اختبار ولا امتحان؛ لأن في هذا الشق كل الموجودات دالة على موجدها، ولذا فالذين يعملون على نظرية (إثبات واجب الوجود) هم في الواقع يعملون بمحيط هذا الشق؛ لأن واجب الوجود يثبت بإمكان الوجود، بمعنى أن أي مخلوق إنما هو في حقيقته واقع في الإمكان، ووقوعه في حيز الإمكان دال على أن هناك واجب الوجود أوجده، كما أن تعدد إمكان الوجود دال قهراً على وحدانية واجب الوجود، ولا يحتاج إلى كل هذا الكلام في مسألة إثبات واجب الوجود، وحتى ما حاولوه من خلال تشقيق مصطلح الإمكان، وصنفوه في؛ الصانعية، والنظام، ومسألة الدور والتسلسل، ما هو إلا محاولة لتوهيم القارئ أن ساحة الوحدانية التي يعمل بها هؤلاء هي ساحة الوحدانية الحقيقية، وواقع الحال يكشف أن ما قدموه لا يعدو أن يكون وصفاً للوحدانية بشقها القهري الذي تتساوى فيه كل الموجودات.

أما ما غفل عنه الباحثون في علم الكلام بجانب معرفة الوحدانية؛ هو **الشق الثاني**: وهو الشق الذي امتازت به المخلوقات وتراتبت، ومن ثم امتحن به الإنسان وعلى أساسه تفاضل أفراده، وهذا الشق هو الشق المعطل من المعرفة التكليفية، فعمل الناس في شق المعرفة القهرية – وأسميها معرفة مجازا وإلا فهي ليست معرفة حقيقية – إنما هو عمل حاول الذين اختاروا الابتعاد عن سبيل المعرفة الحقيقية ترويجه والعمل على إخراجه وكأنه هو ميدان المعرفة التكليفي.

ولكن على الرغم من كل الجهود التي بذلوها بقي هذا الشق من المعرفة (شق ترقي) بمعنى أن العمل به هو عمل لا يرقى بالعالم به أو العامل به إلى أي مرتبة سوى ما استحدثه الناس من المراتب الدنيوية، وهذه المراتب هي في واقعها مأخوذة من المعرفة الحق، ومعنى استحداثها من الناس هو أنهم أجروها في غير مجاريها، وهذا استحداث لها في حيز لم تكن عاملة فيه ولن تكون.

لذا فإن في ميدان المعرفة الزائفة تستحيل المرتبة المعرفية إلى سلطة وجاه بدلاً من أن تكون خدمة ومسؤولية، وبذلك فميدان هذه المعرفة يحفز شهوة الإنسان ورغبته في بلوغ السلطة والجاه، ولا يحفزه على العمل من أجل الخدمة وتمثيل الله سبحانه في واقعه، ومن هنا نجح أولئك الذين استحدثوا هذا الميدان المعرفي – ظاهراً – في استقطاب سواد الناس للعمل فيه. وعملوا هم على نسجه نسجاً معقداً لا يعرف الداخل فيه له مخرجاً ولا غاية سوى ما يقع في وهمه من غاية، حتى إذا سئل عنها تحدث عنها بعمومية عقيمة وغير منتجة؛ لأن كل عامل في هذا الميدان إنما يعلم تمام العلم أنه جاء من أجل أمرين لا ثالث لهما، وهما؛ أن يكون عالماً ومشهوراً يشار إليه بالبنان، وأن يمتدح كل عمل يقوم به وإن كان سخيفاً، ويستعظم منه كل فعل وإن كان صغيراً، وتفخم صفاته على صغائرها ويملأ به أكبر حيز ممكن من أوهام الناس بهذا العبقري الذي جاء بما لا يستطيع أحد أن يأتي به !!

ولا أدل على ذلك من جردة الأوصاف والسمات التي تسبق اسمه التي يسطرها المدبجون وتدغدغ مشاعره فيرتضيها ويسعد بها، وهذه الجردة هي؛ هذا الكتاب للعالم الرباني والفطحل النحرير ووحيد زمانه، وسيد أقرانه، و... الخ من الأوصاف التي لو انتبه من يدبجها لعلم أنها كلما زادت دلت على أن هذا الكتاب وما فيه فقير جداً ولا قيمة له !! وقد يقول سائل: كيف ؟؟!! والجواب سهل يسير، ألا وهو؛ لو كان هذا الكتاب كتاب علم حقيقي فهو سيعلن عن نفسه بنفسه، أما التقديم له باسم كاتبه ووصفه بهذه الصفات فهي دالة على أن الكتاب فقير ويحتاج إلى تلك المقدمات التي تستلب القارئ وتجعله تحت سلطتها حتى تجعله يتوهم سفيه الأفكار عظيمها، واللف والدوران حول الفكرة عبقرية، وغموض الفكرة هو دلالة بعد غور كاتبها، وواقع الحال غير ذلك تماماً.

ومن يريد أن يرى ذلك بنفسه ويمتحنه، فليعمد إلى عموم الكتب التي كتبت بهذا المجال ويمزق أغلفتها ومقدمات التقريض، بل وحتى مقدماتها، وليبقِ المتن حسب ومن ثم يشرع في قراءتها قراءة متعلم ليس أمامه غير الكلمات الدالة على فكر كاتبها، فهي من تعرفه بحقيقة هذا الفكر وبواقعه، ليتوضح له هذا الخوض الذي يتناقض في مرات كثيرة مع أبسط البديهيات، بل سيتضح للقارئ أن كاتب هذا الكتاب لا يحسن التفريق بين المفاهيم ومصاديقها فيقع في

الخلط والإلباس والالتباس، فيبني نتائج مفهومية على مقدمات مصداقية، أو يعمل العكس، أو يخلط بين المفهوم والمصداق ليخرج بنتيجة غائمة، أو...، أو ...

وهكذا ترى هذه المؤلفات وخاصة التي تناولت ما اصطلح عليه بعلم الكلام مليئة بهذا الشيء، ولذا نرى أن هذا العلم انحرف عن غايته التي من أجلها أنشئ، فبدلاً من أن يكون علماً لمعرفة الوحدانية صار علماً يتبارى فيه الأفراد لإثبات قدراتهم في النقض والنقض المقابل على بعضهم، وغاية ذلك ليس لبيان حقيقة المنقوض بقدر ما هو بيان لإمكانية فاعل النقض، وأما العلم بأصله فلم يتجاوز المرحلة التي بدأ منها، وبقي يراوح في مكانه على الرغم من طول عمره الزمني !!

ما يريد التنبيه إليه هذا البحث هو أن الشق الحقيقي لمعرفة الوحدانية هو الشق المعطل والمغيب والمجهول لدى عامة الناس فضلاً على كثير من خاصتهم الذين توهموا أن ذاك الشق هو ميدان العلم والمعرفة، ولذلك وجدتهم يفنون زهرة شبابهم في طلبه وطلب ما يتعلق به من علوم وملحقات، مع أن نظرة صادقة فيما ورد عن أهل بيت العلم والمعرفة وهم آل محمد عليهم السلام سينجلي للناظر أن ما توهمه ميدان علم ومعرفة ما هو إلا وهم وسراب موصوف بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1].

والدليل على أن هذا سراب كونه لم يقدم للعاملين به ما وعد به في أول الشروع بالعمل فيه، بل كان يعد بغايات كبيرة ولكنها غايات – في نفس الوقت – ضبابية وغير واضحة؛ لأنها – أي تلك الغايات – بجملتها مبنية على استفزاز شهوة الإنسان وتفعيل رغباته في العمل والبحث، حتى يصل إلى مرحلة تستبين له حقيقة هذا العمل، ولكنه يجد نفسه غير قادر على التراجع؛ لأنه أوقع نفسه بين المطرقة والسندان –كما يقال –، فالسندان هو هذا السبيل الذي اكتشف عقمه وهو في وسطه، والمطرقة هو نظر الذين خلفه وهم يتبعونه ويهتدون بقوله ويسيرون على خطاه، واكتشاف هذه الحقيقة المرة يوقعه في هذا المأزق، فإن كان حرّاً وطالباً للحق فسيفعل كما يفعل الأحرار ويكشف زيف هذا السبيل ويتحمل قبال ذلك كل النتائج

١- النور: ٣٩.

التي قد تكون حياته ثمناً لها، أو يصمت وينزوي حتى يموت في زوايا النسيان لا أحد يلتفت إليه، وعلى الرغم من ذلك تبقى كتبه ومؤلفاته رافداً لهذا الميدان الذي اكتشف عقمه وسقمه.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ۞ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً ۞ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ۞ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾[٢].

إن شق معرفة الوحدانية الحق هو شق المعرفة الابتلائية والامتحانية والاختيارية، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣]، فهذه الآية الكريمة على الرغم من إساءة الناس لفهمها وإجرائها في غير سبيلها الحق هي كاشفة عن شق المعرفة الحق.

فهذه المعرفة التي تستند إلى أن واجب الوجود أمر بديهي لا اختلاف فيه ولا تمايز ولا تفاضل، ولكن الاختلاف والتمايز والتسابق والتفاضل يقع في: من هو واجب الوجود، وما السبيل الموصل إليه ؟؟؟ وهذان السؤالان هما لب المعرفة الحق، ولا يمكن معرفة من هو إلا بمعرفة السبيل إليه؛ بمعنى أن هذا السبيل في المعرفة ينقسم إلى قسمين:

الأول: المفاهيم وهي موجودات مجردة كاشفة، أو بالمصطلح الأقرب إلى فهم عامة الناس؛ (القسم النوراني).

١- الكهف: ١٠٣ – ١٠٦.
٢- الفرقان: ٢٠ – ٢٣.
٣- البقرة: ٢٥٦.

والثاني: هو المصاديق أي الشخوص القائمة بالنور والممثلة له، فالمفهوم هو عالم مجرد تكون الأشياء فيه تصورية، والمصداق هو حضور مجسد لشيئية المفهوم، ولذا تجد غالباً ما يقع الباحثون عند تناول المعرفة بهذا الإشكال؛ إشكال الخلط بين المفاهيم والمصاديق المعرفة بها، حيث يقيم الباحث مرة المفهوم مقام المصداق أو يعمل العكس، فيلتبس الفهم على القارئ ومن ثم يضيع المطلب والغاية فتصبح القراءة عقيمة ومملة وغير ذات نفع.

ولعل ما علينا أن نفهمه حتى يكون القول نافعاً ومفيداً ومتيسراً فهمه للجميع هو أن الفرق بين المفهوم والمصداق هو كالفرق بين الكتاب والمعلم من جهة الحضور، ولكنهما واحد من جهة المعرفة، أي من يتوجه إلى المعلم فهو حتماً سيعرف الكتاب، وستستبين له أسراره وما يحتويه من مفاهيم عميقة، بل وسيلمس تقدماً واضحاً في نظره للأشياء وفهمها ومن ثم طريقة التعامل معها وهذا يتوضح عليه بعمله، يعني هكذا يكون؛ من عرف شيئاً أحبه، وما أحبه يريد أن يظهر عليه أثره.

وإظهار الأثر يكون بالتخلق بأخلاق المحبوب، فمن عرف المعلم أحبه، ومن أحبه عمل على التمثل به حتى يكون مثله، ومن صار مثله كان في مقامه تنكشف له أسرار الكتاب الذي يقرؤه، فالكتاب هو بواقع حضوره وجود مفهومي مرمز، والمعلم هو بواقع حضوره وجود مصداقي مبين لتلك الرموز، ولذا فمفردة مصداق دالة على أن هذا الموصوف بها هو مصدق للمفهوم ونتيجة تصديقه للمفهوم أتاح له فك رموزه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى دالة على أن المفهوم هادٍ إليه ومعرِّف به، فلا يستطيع ترجمة رموز الكتاب إلا من وكِّل به.

فتمكنه من الترجمة وحل معضل الرموز يجعل من الكتاب دالاً على من ترجمه ومبين لأهميته وضرورته في حياة من نزل الكتاب لهم، وهذه الحقيقة عرضها الكتاب المجيد بأوضح بيان في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**﴾[1]، فالنص هو من يهدي للتي هي أقوم وليس شيئاً غيره، وهدايته للتي هي أقوم من خلال التعريف بالمعلم وبما يتصف به كونه ممثلاً للسبيل الأقوم الذي وصفه الحق سبحانه بـ (الصراط المستقيم)، قال تعالى: ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ۞ صِرَاطَ**

١- الاسراء: ٩.

الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ...﴾[١]، فهذا الصراط وصف بأنه أقوم كونه مستقيماً، وكذلك وصف بالأقوم كونه مبيناً للقائم عليه (الذين أنعمت عليهم) وهذه الصفة خاصة بالقائم عليه، بدليل قوله تعالى: ﴿**الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾**[٢]. فالكتاب منزل إليه خاصة، والمخاطب هنا رسول الله في كل زمان، ومخطئ من ظن أن المخاطب في هذه الآية هو رسول الله محمد صلى الله عليه وآله حسب؛ لأن ذلك يستدعي أن تموت الآية بموت صاحبها، ولو كان الأمر كذلك لمات القرآن كله، غير أن الثابت هو أن القرآن يجري في الناس مجرى الجديدين الشمس والقمر، وجريانهما ليس مخصوصاً بأمة دون أمة أو زمان دون زمان وكذلك القرآن.

ورد عن: (تفسير فرات بن إبراهيم: جعفر بن محمد الفزاري بإسناده عن خيثمة، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا**﴾[٣] إلى آخر الآية، قال: **يعني مودتنا ونصرتنا**. قلت: أيما قدر الله منه باللسان واليدين والقلب، قال: **يا خيثمة، نصرتنا باللسان كنصرتنا بالسيف، ونصرتنا باليدين أفضل. يا خيثمة، إن القرآن نزلت أثلاثاً، فثلث فينا، وثلث في عدونا، وثلث فرائض وأحكام، ولو أن آية نزلت في قوم ثم ماتوا أولئك ماتت الآية إذاً ما بقي من القرآن شيء، إن القرآن يجري من أوله إلى آخره ما قامت السماوات والأرض، فلكل قوم آية يتلونها. يا خيثمة، إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء. يا خيثمة، سيأتي على الناس زمان لا يعرفون الله ما هو والتوحيد حتى يكون خروج الدجال، وحتى ينزل عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام من السماء ويقتل الله الدجال على يديه، ويصلي بهم رجل منا أهل البيت، ألا ترى أن عيسى يصلي خلفنا وهو نبي ؟ ألا ونحن أفضل منه**)[٤].

فالمخاطب هنا رسول كل زمان، وهذا الرسول هو وليس أحد غيره من يخرج الناس من ظلمات الجهل بصراط الله سبحانه إلى نور العلم والمعرفة به، بل أنه سبحانه صرح باسم

١- الفاتحة: ٦ – ٧.
٢- إبراهيم: ١.
٣- الأنعام: ١٥٨.
٤- بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج٢٤ ص٣٢٨ – ٣٢٩.

صاحب هذا الصراط الموصوف بالمستقيم حين أضاف الصراط إلى اسمه، بقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[١]، ومن ينظر بتدبر إلى من ضبط الآية وشكلها يكتشف مدى الجور الذي جار به أولئك الذين نصبوا أنفسهم أئمة للكتاب وليس الكتاب إمامهم.

فمعلوم أن النص لم تدخله الحركات إلا في وقت متأخر جداً عن نزوله، أي بدؤوا يضبطونه بالشكل في زمن دولة الأمويين، وهذا يعني أن هذا الضبط في الشكل واضح جداً دلالته السياسية في العبث في تشكيل النص الحقيقي، وإلا من له أدنى معرفة بالعربية يقول هذه الصياغة على وفق هذا الضبط هي صياغة ركيكة جداً ولا معنى لها، فما معنى (صراط عَلَيَّ)، هل يعني أنه على غيري ليس كذلك، ثم ما معنى (عَلَيَّ)، هل الصراط موضوع على ظهري وأنا أتحمله أو هو واجب عليَّ وعلى غيري ليس واجبا ؟؟؟!!! لا معنى للآية الكريمة على وفق هذا الضبط الشائع اليوم، وإنما التزم الناس بهذا الضبط من باب سلطة شيوعه وجريان عامة الناس عليه وأنه بعد ضبط الأوائل لا يجوز النظر والتصحيح وما إلى ذلك من قواعد الاستلاب التي مارستها الأديان السابقة على متبعيها؛ لكي لا ينكشف فعل علماء السوء والطواغيت ومدى تجرؤهم على النصوص الإلهية، مثل عقيدة (الأقانيم ثلاثة مستقلة وهي واحد وهذا أمر فوق العقل ولا يجوز للمسيحي تعقله وإنما عليه الإيمان به حسب)، وهذه مصادرة على المطلوب واضحة، وهذا استلاب فكري لا يمارسه الحق سبحانه الذي قال: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾[٢]، فهذا الاستلاب والسلطوية هي إكراه وقهر، وحاشا لله سبحانه وهو العادل أن يقهر عباده، بل هو خيرهم سبحانه وهم محاسبون عنده على اختيارهم.

إذن فالضبط الحق هو ما ضبطه أهل الذكر وهم آل محمد عليهم السلام حيث ورد: (عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، قال: "**هو والله علي عليه السلام، هو والله الميزان والصراط المستقيم**")[٣].

ومن هذه الآية الشريفة يتوضح للقارئ نهج المعرفة الحق من غيره، فالذين تدخلوا حتى بضبط النص الإلهي ليلبسوا على الناس صراط الله المستقيم، ويصرفونهم عنه بغية إخراج الناس

١- الحجر: ٤١.
٢- البقرة: ٢٥٦.
٣- مختصر بصائر الدرجات: ص٦٨.

من نور المعرفة إلى ظلمات الجهل ليكون للطاغوت عليهم سبيلاً، وليجدوا لهم مندوحة في إحداث سبيل للمعرفة هو في واقعه سبيل يتساوى به الإنسان المكلف مع ما هو دونه من الخلائق الذين لم يكلفهم الله سبحانه معرفته ولم يجعلهم يتمايزون بحسب المعرفة، بل أن الخلق الذين كلفهم الله سبحانه معرفته هم من يتمايز بالمعرفة وبها يتفاضل.

ونهج المعرفة قائم على أركان ثلاثة؛ غاية لابد من بلوغها، وطريق موصل للغاية، وعلامة دالة على الطريق. فكانت الغاية معرفته سبحانه التي ذكرها بالحديث القدسي: (**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف**)، والسبيل هو النص الإلهي المعرِّف بالغاية، والعلامة الدالة على الطريق (النص الإلهي) هي مترجم القرآن والناطق به وهو معلمه، وهو الميزان الذي توزن به معرفة العباد، وهو الإمام الذي ذكره الحق سبحانه بقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾[1]، وهؤلاء الأئمة المجعولون هم أئمة منصبون منه سبحانه، ولذا فكل نهج المعرفة بتفاصيله هو منه سبحانه ولا دخل للعباد في أي ركن من أركان المنهج، فالغاية منه، والسبيل منه، فكيف يتوهم الناس أن المعلم يكون منهم وباختيارهم ؟؟!!

لا أحد منصف لنفسه يقول: إن الحكيم يترك الأمر لمن دونه ولا يحكمه، وليس من الحكمة أن يبقي ركناً من أركان المعرفة مجهولاً للناس، ولو كان ذلك – تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً – لكان الناس معذورين في جهلهم، وعدم قدرتهم على المعرفة، ومن ثم فوقوعهم بحبال المتكلمين والعمل بنهجهم لا يؤثمون عليه؛ لأنهم لم يجدوا سبيلاً للمعرفة كي يعرفوا به الله سبحانه غير نهج المتكلمين، وهذا الأمر يشهد الواقع بخلافه، فالله سبحانه لم ينزل ديناً ناقصاً ويترك للعباد مهمة تكميله؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والعباد هم فقراء ليس لديهم ما يعطونه، بل هم يسألون الغني أن يعطيهم، وليس هناك غني مطلق غيره سبحانه، وهم إليه متوجهون، طوعاً بالمعرفة، وقهراً بأصل الوجود.

لذا فالتوحيد الحق هو بمعرفة منهجه، ومنهجه قائم على رجل هو الدين كما يسميه الإمام الصادق في هذه الرواية الجليلة القدر وهي طويلة نأخذ منها محل الشاهد: (**إني أخبرك أن**

١- الأنبياء: ٧٣.

الدين وأصل الدين هو رجل وذلك الرجل هو اليقين وهو الايمان وهو إمام أمته وأهل زمانه فمن عرف عرف الله ومن أنكره أنكر الله ودينه ومن جهله جهل الله ودينه وحدوده وشرايعه بغير ذلك الإمام كذلك جرى بأن معرفة الرجال دين الله، والمعرفة على وجهه معرفة ثابتة على بصيرة يعرف بها دين الله، ويوصل بها إلى معرفة الله، فهذه المعرفة الباطنة الثابتة بعينها الموجبة حقها المستوجب أهلها عليها الشكر لله التي منَّ عليهم بها، من مَنِّ الله يمن به على من يشاء، مع معرفة الظاهرة ومعرفة في الظاهرة فأهل المعرفة في الظاهر الذين علموا أمرنا بالحق على غير علم لا يلحق بأهل المعرفة في الباطن على بصيرتهم ولا يضلوا بتلك المعرفة المقصرة إلى حق معرفة الله كما قال في كتابه ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ فمن شهد شهادة الحق لا يعقد عليه قلبه على بصيرة فيه كذلك من تكلم لا يعقد عليه قلبه لا يعاقب عليه عقوبة من عقد عليه قلبه وثبت على بصيرة فقد عرفت كيف كان حال رجال أهل المعرفة في الظاهر والإقرار بالحق على غير علم في قديم الدهر وحديثه إلى انتهى الامر إلى نبي الله وبعده إلى من صار والى من انتهت إليه معرفتهم وإنما عرفوا بمعرفة أعمالهم ودينهم الذي دان الله به المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وقد يقال إنه من دخل في هذا الامر بغير يقين ولا بصيرة خرج منه كما دخل فيه رزقنا الله وإياك معرفة ثابتة على بصيرة) [1].

* * *

١- بصائر الدرجات – محمد بن الحسن الصفار: ص٥٤٩ – ٥٥٠.

يماني آل محمد عليه السلام يبين مشروعه

لعل من المفيد أن اضع للقارئ الكريم بعض ما بينه الإمام أحمد الحسن عليه السلام من مشروعه الإلهي وهو الدعوة إلى حاكمية الله ومدى ضرورتها من خلال إجابته لسؤال حيوي ومهم جداً ألا وهو (المصلح المنتظر لماذا ؟)

يقول الإمام أحمد الحسن عليه السلام في الاجابة على هذا السؤال: (المصلح المنتظر لماذا):

[الدين:

أ) الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وفي الرواية عنهم عليهم السلام أي ليعرفون، فأهم مهمة للمصلح المنتظر عليه السلام هي أن يُعرّف الناس بالله سبحانه وتعالى ويسلك بهم إلى الله فهو دليل الله سبحانه وحجته على عباده.

ب) الرسل عليهم السلام:

المهمة الثانية للمصلح المنتظر هي أن يُعرّف الناس بالرسل عليهم السلام ويبيّن مظلوميتهم وأنهم خلفاء الله في أرضه المدفوعون عن حقّهم والمغصوبون إرثهم.

ج) الرسالات:

المهمة الثالثة للمصلح المنتظر عليه السلام هي أن يُعرّف الناس بالرسالات السماوية والشرائع الإلهية وينفي عنها التحريف والباطل ويظهر الحق والعقيدة التي يرضاها الله سبحانه وتعالى والشريعة التي يرضاها الله سبحانه.

وبالنتيجة، فإنّ أهم ما يأتي به المصلح المنتظر عليه السلام لإصلاح الدين هو العلم والمعرفة والحكمة (ويعلمهم الكتاب والحكمة)، وقد ورد في الحديث عن الصادق عليه السلام: (العلم سبعة وعشرون حرفاً، فجميع ما جاءت به الرسل حرفان فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين،

١- الذريات:٥٦.

فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفاً فبثها في الناس وضم إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفاً)[١].

٢- الدنيا :

المصلح المنتظر كما يقول جميع أصحاب الديانات السماوية هو الذي يملؤها قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً (أي الدنيا)، وهذا الحديث مشهور عند المسلمين فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن أهل بيته عليهم السلام ورواه السنة والشيعة [٢].

فما هي الأمور التي تحتويها حاكمية الله حتى تكون سبباً لامتلاء الأرض قسطاً وعدلاً ؟ وقبل أن أبحث في هذا المقام المهم أريد أن أبيّن أمراً لا يقل أهمية عنه بل ويبيّن الحاجة للبحث في هذا المقام، وهو أننا كمسلمين شيعة وبناءً على ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته من علامات ظهور وقيام المصلح المنتظر متفقون على أنّ هذه الأيام هي أيام ظهوره وقيامه عليه السلام، وطبعاً لا يهمنا رأي من يتخبط العشواء وهو لم يطلع على الروايات، ثم إنّ المسيحيين في العالم أيضاً يعتبرون هذه الأيام هي أيام ظهور وقيام المصلح المنتظر عليه السلام وهو عندهم عيسى عليه السلام، بل إني قرأت كتاباً لقس مسيحي كتبه في منتصف القرن الماضي يعتبر فيه أنّ إرهاصات الظهور والقيامة الصغرى قد بدأت في الملكوت.

١- مختصر بصائر الدرجات: ص١١٧، بحار الأنوار: ج٥٢ ص٣٣٦.

٢- روي ذلك من طرق السنة والشيعة، وأذكر بعضاً مما روي تاركاً الكثير مراعاة للاختصار، فمن طرق السنة ما جاء في سنن أبي داود وغيره: عن أبي الطفيل، عن علي رضى الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً) سنن أبي داود : ج٢ ص٣١٠.
وروى الحاكم في المستدرك: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج إلينا مستبشراً يعرف السرور في وجهه فما سألناه عن شيء إلاّ أخبرنا به، ولا سكتنا إلاّ ابتدأنا حتى مرت فتية من بني هاشم فيهم الحسن والحسين فلما رآهم التزمهم وانهملت عيناه، فقلنا: يا رسول الله ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه، فقال: إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وأنه سيلقى أهل بيتي من بعدي تطريد أو تشريداً في البلاد حتى ترتفع رايات سود من المشرق فيسألون الحق فلا يعطونه، ثم يسألونه فلا يعطونه، ثم يسألونه فلا يعطونه، فيقاتلون فينصرون، فمن أدركه منكم أو من أعقابكم فليأت إمام أهل بيتي ولو حبواً على الثلج، فإنها رايات هدى يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبي، فيملك الأرض فيملاها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً) المستدرك: ج٤ ص٤٦٤.
وروي من طرق الشيعة: عن أبي بصير، عن الصادق جعفر بن محمد، عن آبائه عليهم السلام، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: المهدي من ولدي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خلقاً وخلقاً، تكون له غيبة وحيرة حتى تضل الخلق عن أديانهم، فعند ذلك يقبل كالشهاب الثاقب، فيملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً) الإمامة والتبصرة : ص١١٩.

أمّا بالنسبة لليهود فهم يعتبرون هذه الأيام هي أيام القيامة الصغرى، بل كثير من أحبارهم يقطعون أنّ هذه الأيام هي أيام عودة إيليا عليه السلام وظهور المصلح العالمي، وقبل أيام ليست ببعيدة قام جماعة منهم بإلقاء منشورات بالطائرات على المسلمين في فلسطين يطالبونهم بمغادرة الأرض المقدسة؛ لأنّ الوقت قد حان لقيام الساعة الصغرى، وإن هذه الأيام هي الأيام الأخيرة وبعدها لن يبقى في الأرض المقدسة إلاّ الصالحون، وبحسب اعتقاد اليهود أنهم هم الصالحون.

فإذا كان الأمر كذلك تبيّن أنّ جميع المتدينين المتمسكين بما ورد أو صح وروده عندهم عن الأنبياء عليهم السلام يقرّون أنّ هذه هي أيام القيامة الصغرى وظهور المصلح العالمي المنتظر عليه السلام. فإذا كانت هذه أيام ظهوره وهو يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً تبيّن لنا أنّ الدنيا هذه الأيام ممتلئة ظلماً وجوراً.

وهنا يرد سؤالان:

الأول: بماذا ملئت الدنيا ظلماً وجوراً ؟

وقد تبيّن جوابه فيما مضى وسأشير إليه فيما يأتي.

والثاني: بماذا تمتلئ قسطاً وعدلاً ؟

وهذا ما أريد الشروع في بيانه، وطياً أسطر بعض ما في حاكمية الله سبحانه وتعالى من أمور تجعلها سبباً لملء الأرض عدلاً.

١- القانون (الدستور العام وغيره):

الذي يضع القانون هو الله سبحانه وتعالى وهو الخالق لهذه الأرض ومن عليها ويعلم ما يصلح أهلها وسكانها من إنس وجن وحيوانات ونباتات وغيرهم من المخلوقات التي نعلمها والتي لا نعلمها، ويعلم الماضي والحاضر والمستقبل وما يصلح الجسم والنفس الإنسانية وما يصلح الجنس الإنساني ككل، فالقانون يجب أن يراعي الماضي والحاضر والمستقبل والجسم والنفس الإنسانية ومصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ومصلحة باقي المخلوقات، بل يجب أن يراعي حتى الجماد كالأرض والماء والبيئة ...الخ، ومن أين لغير الله سبحانه وتعالى أن يعرف

تفاصيل كل هذه الأمور مع أنّ كثيراً منها غائب عن التحصيل والإدراك أي لا يمكن العلم به ومعرفة صفاته ..الخ.

ثم لو فرضنا أنّ أحداً ما عرف كل هذه التفاصيل فمن أين له أن يضع قانوناً يراعي كل هذه التفاصيل مع أنّ بعضها يتناقض في أرض الواقع فأين تكون المصلحة ؟ وفي أي تشريع ؟

من المؤكد أنها لن تكون إلاّ في القانون الإلهي والشريعة السماوية؛ لأنّ واضعها خالق الخلق وهو يعلم السر وأخفى وهو قادر أن يجري الأمور كيف يشاء سبحانه وتعالى عما يشركون.

٢- الملك أو الحاكم:

لاشك أنّ القيادة كيفما كانت ضمن نطاق حاكمية الناس دكتاتورية أو ديمقراطية أم ضمن نطاق حاكمية الله سبحانه وتعالى فهي تؤثر تأثيراً مباشراً في المجتمع الإنساني؛ لأنّ المجتمع مقهور على سماع هذه القيادة على الأقل فطرياً؛ لأنّ الإنسان مفطور على إتباع قائد معين من الله سبحانه وتعالى ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[1]، وهذا القائد هو ولي الله وخليفته في أرضه فإذا دُفع ولي الله عن حقّه وتشوشت مرآة الفطرة الإنسانية بغبش هذه الحياة الدنيا قَبِل الإنسان بأي قيادة بديلة عن ولي الله وحجته على عباده ليسد النقص الواقع في نفسه وإن كانت هذه القيادة البديلة منكوسة ومعادية لولي الله في أرضه وحجته على عباده، فالإنسان عادة يستمع للقيادة المتمثلة بالحاكم ولن تكون القيادة إلاّ أحد أمرين أمّا ولي الله وحجته على عباده وهو الحاكم المعين من الله سبحانه وتعالى، وإمّا غيره سواء كان دكتاتوراً متسلطاً بالقوّة الغاشمة أم منتخباً انتخابات ديمقراطية حرة، والحاكم المعيّن من الله سبحانه وتعالى ينطق عن الله؛ لأنه لا يتكلم إلاّ بأمر الله ولا يقدّم ولا يؤخّر شيئاً إلا بأمر الله.

١- الروم : ٣٠.

أمّا الحاكم المعيّن من الناس أو المتسلط عليهم فهو لا ينطق عن الله سبحانه وتعالى قطعاً، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما معناه: (من استمع إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق ينطق عن الله فقد عبد الله وإن كان الناطق ينطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان) [١].

فلا يوجد إلاّ ناطق عن الله وناطق عن الشيطان لا ثالث لهما، وكل حاكم غير ولي الله وحجته على عباده ناطق عن الشيطان بشكل أو بآخر وكل بحسبه وبقدر الباطل الذي يحمله.

وقد ورد عنهم عليهم السلام هذا المعنى: (إنّ كل راية قبل القائم هي راية طاغوت) [٢]، أي كل راية صاحبها غير مرتبط بالقائم عليه السلام.

إذن، فالحاكم المعيّن من الله سبحانه وتعالى ينطق عن الله، والحاكم غير المعيّن من الله سبحانه وتعالى ينطق عن الشيطان، ومن المؤكد أنّ الناطق عن الله يصلح الدين والدنيا والناطق عن الشيطان يفسد الدين والدنيا.

بقي أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما في النفوس ويعلم الصالح من الطالح، فهو يختار وليه وخليفته ويصطفيه ولا يكون إلا خيرته من خلقه وأفضل من في الأرض وأصلحهم وأحكمهم وأعلمهم ويعصمه الله من الزلل والخطأ ويسدده للصلاح والإصلاح.

أمّا الناس فإذا عارضوا تعيين الله سبحانه وتعالى فلن يقع اختيارهم إلاّ على شرار خلق الله، بل إنّ في اختيار موسى عليه السلام وهو نبي معصوم لسبعين رجلاً من قومه أعتقد صلاحهم ثم ظهر وبان له فسادهم عبرة لمعتبر، وذكرى لمدكر، وآية لمن ألقى السمع وهو شهيد [٣].

١- انظر : الكافي: ج٦ ص٤٣٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام : ج٢ ص٢٧٢.

٢- فقد روى الكليني في الكافي، والنعماني في الغيبة، وهذا نص ما جاء في غيبة النعماني: عن مالك بن أعين الجهني، قال: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: (كل راية ترفع - أو قال: تخرج - قبل قيام القائم عليه السلام صاحبها طاغوت) الكافي: ج٨ ص٢٩٥، غيبة النعماني: ص١١٥، وسائل الشيعة (آل البيت): ج١٥ ص٥٢، الفصول المهمة في أصول الأئمة: ج١ ص٤٥١، بحار الأنوار: ج٥٢ ص١٤٣، جامع أحاديث الشيعة: ج ١٣ ص٦٦، معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام: ج٣ ص٤٣١.
وروى الصفار عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال للمفضل: (يا مفضل كل بيعة قبل ظهور القائم عليه السلام فبيعة كفر ونفاق وخديعة؛ لعن الله المبايع لها والمبايع له .....) مختصر بصائر الدرجات: ص١٨٣.

٣- روي عن سعد بن عبد الله القمي في حديث طويل أنه سأل الإمام المهدي عليه السلام، وهو غلام صغير في حياة أبيه الحسن العسكري عليه السلام فقال: اخبرني يا مولاي عن العلّة التي تمنع القوم من اختيار الإمام لأنفسهم؟ قال عليه السلام: مصلح أم مفسد؟ قلت: مصلح، قال: فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟ قلت: بلى، قال: فهي العلّة التي أوردتها لك ببرهان يثق به عقلك، اخبرني عن الرسل الذين

٣- بما أنّ القانون والحاكم في حاكمية الله سبحانه يتمتعان بالكمال والعصمة

فعلى هذا يترتب صلاح أحوال الناس السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهذا لأنّ جميع هذه الجوانب في حياة الناس تعتمد على القانون والحاكم؛ لأنّ القانون هو الذي ينظمها والحاكم هو الذي ينفذ، فإذا كان القانون من الله سبحانه كان التنظيم لهذه الجوانب هو الأفضل والأكمل، وإذا كان الحاكم هو ولي الله وخليفته في أرضه وخيرته من خلقه كان التطبيق للقانون الإلهي كاملاً وتاماً وفي أحسن صورة.

وبالنتيجة فإنّ الأمة إذا قبلت حاكمية الله في أرضه فازت بخير الدين والدنيا وسعد أبناؤها في الدنيا والآخرة، وبما أنّ الأمة التي تقبل حاكمية الله في أرضه يرتفع من أبنائها خير ما يرتفع من الأرض إلى السماء، وهو تولي ولي الله والإخلاص له فإنه ينزل عليها خير ما ينزل من السماء إلى الأرض وهو التوفيق من الله سبحانه وتعالى، وتكون هذه الأمة من خير الأمم التي أخرجت للناس؛ لأنها قبلت ولي الله وخليفته في أرضه، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

وتتفاضل الأمم على قدر قبولها لخليفة الله في أرضه والانصياع لأوامره. ومن هنا كانت الأمة التي تقبل الإمام المهدي عليه السلام هي خير أمة أخرجت للناس: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[٢]، وهؤلاء هم الثلاث مائة وثلاثة عشر أصحاب القائم ومن يتبعهم.

اصطفاهم الله وأنزل الكتب عليهم وأيدهم بالوحي والعصمة، إذ هم أعلام الأمم وأهدى إلى الاختيار منهم، مثل موسى وعيسى عليهما السلام هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما إذا همّا بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان أنه مؤمن؟ قلت: لا، قال: هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربّه سبعين رجلاً ممن لا يشك في إيمانهم وإخلاصهم فوقعت خيرته على المنافقين، قال الله عز وجل: (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا)، إلى قوله: (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ) بظلمهم، فلما وجدنا اختيار من اصطفاه الله للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح وهو يظن انه أصلح دون الأفسد علمنا أن لا اختيار إلاّ ممن يعلم ما تخفي الصدور وما تكن الضمائر وتنصرف عليه السرائر وان لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء عليهم السلام على ذوي الفساد لما أرادوا أهل الإصلاح) كمال الدين: ص٤٦١، دلائل الإمامة: ص٥١٥، بحار الأنوار: ص٩٦.

١- الأعراف : ٩٦.

٢- آل عمران : ١١٠.

أمّا إذا رفضت الأمة ولي الله وخليفته في أرضه فإنها تكون ارتكبت أكبر حماقة وخسرت الدنيا والآخرة، ففي الدنيا ذل وهوان، وفي الآخرة جهنم وبئس المهاد.

وما أريد أن أؤكد عليه أخيراً هو أني لا أعتقد أنّه يوجد من يؤمن بالله سبحانه وتعالى ثم إنه يعتقد أنّ القانون الذي يضعه الناس أفضل من قانون الله سبحانه وتعالى، وأنّ الحاكم الذي يعينه الناس أفضل من الحاكم الذي يعينه الله سبحانه وتعالى] [1].

وآخر دعوانا أن الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق، وصلى الله على محمد وآل محمد الأئمة والمهديين وسلم تسليماً.

١٥/ شوال/ ١٤٣٢ هـ

١- حاكمية الله لا حاكمية الناس: ص٢٤ – ٣٠.

الفهرس

الإهداء ٥
استهلال ٧
هل فشل الفلاسفة في صنع المدينة الفاضلة ؟ ١١
النص الإلهي مدار حركة دولة العدل الإلهي ٢٠
المعلم الإلهي هو الميزان ٣١
المتلقي في الميزان ٣٨
مقال في التوحيد ٤٧
يماني آل محمد يبين مشروعه ٥٦
الفهرس ٦٣

والحمد لله رب العالمين